رباني الأمة

الشيخ صالح الجعفري

محمد خالد ثابت

من أقطاب الأمة فى القرن العشرين

الشيخ صالح الجعفرى

إمام المحبين وقدوة الصالحين

(١٣٢٨ – ١٣٩٩هـ = ١٩١٠ -١٩٧٩م)

وكَـمْ مِن عابــدٍ يَمْشــى

مَـع الأقْطـابِ والخِضْــرِ

المحتوى

البيت الذى نشأ فيه

مولده

نشأته

إلى الأزهر الشريف

فى القاهرة

الأزهر

شيوخه بالأزهر

الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى

الشيخ محمد بخيت المطيعى

الشيخ حبيب الله الشنقيطى

الشيخ يوسف الدجوى

الشيخ على الشائب

رجال الأزهر

مشايخه فى الطريق

قطب الزمان أحمد بن إدريس

محمد الشريف

علومه وأعماله

طريقة السلف

الزاهد

مقامات الطالبين

طريقته

فائدة جعفرية

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

مع الوهابية

مع الشيعة

العالم الربانى

كرامات الأولياء

من كرامات الشيخ

وفاته

إذا كنت فى القاهرة قادمًا على طريق "صلاح سالم" من جهة المطار إلى الدراسة فإنك قبل أن تصل إلى النفق تجد لافتة كبيرة وسهمًا يشير إلى جهة اليمين وعليه عبارة "مسجد الجعفرى".

فإذا دخلت مع السهم يمينا وجدت ذلك الصرح المبارك "مسجد الشيخ صالح الجعفرى" لايبعد عن مسجد سيدنا الحسين والجامع الأزهر الشريف بأكثر من كيلومتر واحد أو كيلومتر ونصف.

ولو أسعدك الحظ، وزُرت المسجد فى يوم الأحد أو الخميس مساءً وجدت صورة ينشرح لها صدرك، إذ ترى المصلين بعد أن ينتهوا من الصلاة يجلسون فى صفوف فى هدوء وسكينة لتبدأ الحضرة التى يجلس على رأسها فى وقار وتواضع الشيخ عبد الغنى – ابن الشيخ صالح الجعفرى – وشيخ الطريقة الآن.

وتكاد حضرة الشيخ صالح تكون كلها فى مدح النبى ﷺ، وكل المدائح من نظم الشيخ الذى بلغ ديوانه فى مدح المصطفى ﷺ اثنى عشر جزءًا، ولا يزال أبناؤه يعثرون كل حين –هنا أو هناك– على قصائد جديدة من قصائد الشيخ التى لم تنشر.

ولعل ما يثير الإعجاب فى هذا المجلس هو الأدب الجم، والنظام المحكم السهل التلقائى بلا تكلف ولا تعنت.

***

أثناء الحضرة، والمداحون فى أوج مديحهم لسيد الكائنات ﷺ، يتم إطعام الطعام لجميع الحضور بلا استثناء على دفعات فى غرف ملحقة دون أن يتوقف المديح أو يحدث أى هرج أو فوضى. والطعام دائما – منذ عهد الشيخ رضى الله عنه – هو اللحم والثريد.

وإذا فرغ الجميع من الطعام دارت أكواب الشاى على الجميع، وقد توزع أيضا أنواع من الحلوى يُحضرها بعض الحاضرين، والمديح أيضا مستمر، وأحيانا تُهدى للشيخ كتب قيمة أو عطور فيقوم بتوزيعها وهو جالس فى مكانه، وربما لايكفى عددها جميع الحاضرين فهناك من يأخذ ومن لا يأخذ، لكن الجميع فى سكون ورضا، لا تجد أحدًا يرفع يدًا أو ينادى: أنا أنا..

أما المداحون فهم من أبناء الطريقة تتفاوت مهاراتهم فى المديح تفاوتًا عظيمًا ذلك لأن هذا المجلس مدرسة لتخريج المداحين وصرحًا لبناء المحبة فى القلوب، لذلك تجد الشيخ يشجع الجميع على المدح، وقد تُصادف مداحًا يمدح لأول مرة فى حياته – سواء كان صغيرًا دون البلوغ أو كبيرًا – وربما تلعثم أو لحَنَ فى أدائه، فلا تجد أحدًا يزعجه، أو يلتفت إلى خطئه، إذ أن الجميع منشغلون بالمديح الذى هو فى حقيقته صلاة على النبىﷺ مقرونة بالتعظيم والتبجيل والمحبة، وهم فى عملهم هذا متوافقون مع حركة الكون التى جعلها الله تدور فى فلك محمدﷺ، متوافقون مع ملائكة الله فى الملأ الأعلى التى لا تكف عن الصلاة على سيد الكائنات فى ليل أو نهار، وكذا صلاة ربنا الجليل.

المداح يمدح وكل من فى المجلس يرددون فى صوت جماعى بهيج أبياتا معينة من القصيدة مما يضفى على المجلس جمالاً فوق جمال:

بمدحِ رسولِ الله تنحلُّ عُقْـــدتى
فمدحُ رسول الله نِعْـم وسيـــلتى
بمدح رسول الله تُقْضى حَوائجى
وتُغفـــرُ أوزارى وتُقبـــل تَوْبـتى
به أســـألُ المـولى الكريمَ كرامـــةً
فمدحُ رسول الله ذُخْرى وعُـدَّتى

بجــاهِ رســولِ الله يـاربّ دُلَّـنى
على فهمِ أســرارِ العُلوم الدَّقيقـةِ
وعَجِّل شفائى يا إلهى وعُمَّنــى
بعفــوكِ ياذا العَفْــو عن كلِّ ذلةِ

***

إنه جو من التراحم والمودة والألفة اجتمع على محبة رسول الله ﷺ فصفا من الأكدار، وعلا على سفاسف الدنيا وتفاهاتها، وإن روح الشيخ صالح -رضى الله عنه- لتطوف بالمكان تضفى عليه وعلى أهله من سموها ونقائها..

فمن هو الشيخ صالح الجعفرى مؤسس هذا الصرح، وهذه الطريقة؟ مداح الرسول وآل بيته، مربى المريدين وقدوة الصالحين؟

۞۞۞

البيت الذى نشأ فيه:

ينتمى الشيخ لأشرف بيت عرفه الناس منذ بدأ الخليقة، ولن يعرفوا قط أشرف منه إلى يوم القيامة.. بيت النبوة والاصطفاء..

يقول الشيخ فى التعريف بنفسه وببيته المبارك:

"يقول راجى عفو مولاه ومغفرته ورحمته صالح بن محمد بن صالح الجعفرى الصادقى الحسينى من بلدة الأقصر بصعيد مصر من القبيلة التى هى من الجعافرة، وتسمى العلوية، وهم مفرقون بين الأقصر والحلة والحليلة والدير، وقد قل عددهم والبقاء لله، وفى السلمية يوجد قبر جد والدى محمد رفاعى بمقبرة جد الجعافرة، الشريف السيد الأمير حمد حيث إنه كان يقيم هناك.

وللجعافرة نسب كثيرة محفوظة قديمة، ومن أشهرهم فى إظهار تلك النسب أخيرًا الشريف السيد إسماعيل النقشبندى، وتلميذه الشيخ السيد موسى المرعيابى، ولا تزال ذرياتهم تحتفظ بتلك النسب كثيرة الفروع المباركة.

اعلموا أيها الإخوان أننى كنت منذ صغرى أشعر بأننى من ذرية الإمام سيدنا جعفر الصادق -رضى الله عنه- إلى أن رأيت فى أوراق والدى -رحمه الله- الرسمية جنسيته (جعفرى)، وكنت أرى أجدادى -رضى الله تعالى عنهم- بالبلد حتى أتيت مصر، فأول رؤية رأيت فيها السيدة زينب -رضى الله تعالى عنها- بنت أمير المؤمنين سيدنا على -رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه- فسلمت عليها وهى فى مقامها من وراء حجاب، ومدت لى يدها وهى مستترة وقالت لى: كيف حالك وحال أهلك الجعافرة؟

ثم رأيت أهل بيت النبوة أجمعين يسلمون على ويعطفون، وبالأخص السيدة فاطمة الزهراء -رضى الله تعالى عنها- ثم رأيت النبى -صلى الله عليه وآله وسلم- جالسًا على سرير، وبجواره الصدِّيق -رضى الله تعالى عنه- وجاء سيدنا على -رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه- فقمت وسلمت عليه وأمسكت يده وقلت له: أنا محسوب عليك، أنا من ذريتك، أنا من ذرية سيدنا جعفر الصادق. وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إلينا ويسمع كلامى فأشار برأسه الشريف من أعلى إلى أسفل مصدقًا قولى بقوله: نعم -صلى الله عليه وآله وسلم- فلما استيقظت كانت هذه الرؤيا أحب إلى من الدنيا

وما فيها.

وهناك مرائى كثيرة تدل على ذلك والحمد لله. وإنى أشكر الله – تعالى- حيث إن أجدادى عرفونى رجالا ونساء، وهذا منتهى أملى. وأما الناس فلا حاجة لى بهم، فإن معرفتهم لا تضر ولا تنفع.

وإنى أشكر الله –تعالى- حيث جعلنى أنتسب إلى هذا البيت الطاهر، وعرّف أجدادى بى وعرّفنى بهم. وجعلت الله على قولى هذا وكيلا، وهو حسبنا ونعم الوكيل".

ويزيدنا الشيخ معرفة بأهله فيقول:

"إن جدنا كان يُعرف بالرفاعى، وقد هاجر إلى "دُنقلا" بالسودان واستقر هناك، وكان من علماء الأزهر العاملين، وكان يقيم حلقة لتحفيظ القرآن الكريم وحلقه لتدريس العلم النافع فى مسجد "دُنقلا"، وكان منصرفا بقلبه وعقله وسائر جوارحه إلى العلم والقرآن، وقد ترك أمور الزراعة وإدارة شئون منزله إلى ابنه "محمد صالح" فهو الذى كان يتولى فلاحة الأرض وأشرف على تزويج إخوته البنين والبنات قبل أن يتزوج هو".

و "محمد صالح" هو والد شيخنا وكان مكافحًا فى السعى على أهله وقضاء حوائج الأسرة وشئون المعيشة، ومع ذلك كان عابدًا مقبلا على أمور الآخرة، وقام بالحج عدة مرات.

***

لما تزوج الحاج محمد صالح لم يُرزق بالذرية مدة ثمانى سنوات ، فعزم أهله على أن

يزوجوه بامرأة أخرى، فلما علمت زوجته بذلك ذهبت إلى قبر سيدى عبد العالى ابن القطب الكبير سيدى أحمد بن إدريس، وسيجىء الحديث عنهما مفصلا بعد قليل إن شاء الله تعالى.

ذهبت الزوجة إلى المقام الكائن بمسجد "دُنقلا" ودعت الله عنده، ووعدت إذا رزقها الله بمولود أن تصوم ستة أيام من غير رمضان وتهب ثوابها لسيدى عبد العالى، وتنفق فى مولده جنيها كاملاً على الفقراء والمساكين.

۞۞۞

مولـده:

وحقق الله رجاء الزوجة الصالحة، ورزقها بمولود ذكر هو شيخنا. فحمله أبوه وهو فرح به إلى والده العارف بالله الشيخ صالح ليزف له البشرى، وقال له إنه يريد أن يسمى المولود باسم جده "صالح" فقال له الشيخ: إذا سميته باسمى فإنك ستهبه لله تعالى ولن تنتفع منه بشىء فى عملك ولا فى زراعتك. فقال الوالد فى غمرة الفرح: قد وهبته لله.

وكان مولده فى "دنقلا" بالسودان، يوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٢٨ من هجرة سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه، الموافق سنة ١٩١٠ من ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

۞۞۞

نشأتـه:

نشأ الوليد فى هذا البيت المبارك حتى اشتد عوده، وكأن والده قد نسى مع مرور الأيام ما سبق منه حين وهب ولده لله عند مولده، فأراد أن يعلمه شيئا من التجارة،

فذهب به إلى دكان عمه. ولكن الصبى كان يهرب من الدكان ويذهب إلى مسجد "دنقلا" حيث توجد حلقة تحفيظ القرآن، وحيث قبر الولى الصالح سيدى عبد العالى الإدريسى، وحيث يوجد الشيخ محمد الشريف القائم على الطريقة الإدريسية آنذاك.

ووالده فى ذلك يغضب عليه ويعاقبه على ترك الدكان، ويحاول أن يوجهه إلى تعلم التجارة، فلما طال عليه هذا الأمر دون جدوى ذهب إلى سيدى محمد الشريف بن سيدى عبد العالى ليشاوره فى حال ولده، فقال له الشيخ مكاشفًا:

- أنسيت أنك قد وهبته لله تعالى؟ أرسل ولدك إلى الأزهر.

***

انقضت فترة الطفولة والصبا فى طهر وعفاف وإقبال على القرآن وعلى سلوك طريق أهل الله. يصف ذلك الشيخ -رضى الله عنه- بقوله:

"كنت منذ طفولتى مشغوفا بالعلم وحفظ القرآن، وكنت ملازما للمصحف الشريف، وكنت عندما أنام أضعه بجوارى، فإذا استيقظت فى أى وقت من الليل أعود إلى المصحف للقراءة والترتيل".

وفى سن مبكرة اتصل بشيخه السيد محمد الشريف فى مسجد دنقلا، وأخذ الطريق عنه، ويصف حفاوة الشيخ به وتفرسه فيما سيكون له من شأن فيقول:

"كنت صبيًا صغيرًا عندما كان الشيخ يلقانى قائلا: مرحبا شيخنا: فكنت أخجل من نفسى وأتساءل عجبا: كيف يقول لى مرحبا شيخنا وأنا صبى صغير وحوله كبار المشايخ؟

وسوف يكون لهذا الحديث ما بعده، وسنلتقى بخبره بعد صفحات، فإن أولياء الله

لا يلقون الكلام جزافًا..

۞۞۞

إلى الأزهر الشريف:

"قبل مجيئى إلى الأزهر جاء أحد أهل البلد بأول جزء من شرح النووى على صحيح مسلم، فاستعرته منه، وصرت أذاكر فيه، فرأيت (فى المنام) سيدى عبد العالى الإدريسى -رضى الله عنه- جالسًا على كرسى، وبجواره زاد للسفر، وسمعت من يقول إن السيد يريد السفر إلى مصر إلى الأزهر، فجئت وسلّمت عليه وقبّلت يده، فقال لى مع حدَّة: العلم يؤخذ من صدور الرجال لامن الكتب. وكررها، فاستيقظت من منامى وقد ألهمنى ربى السفر إلى الأزهر".

ولما صح عزم الشيخ على الالتحاق بجامعة الإسلام العريقة أخذ أهبة السفر، وكان آنذاك متزوجًا وأبا لاثنين من أبنائه، فترك أهله ويمم شطر القاهرة فى رحلة طويلة شاقة عبر مفاوز وجبال وطرق غير معبدة وأنهار حتى بلغ فى النهاية بغيته. يقول فى قصيدة له واصفا مجيئه إلى مصر التى شرفها الله بمراقد أهل البيت وشرّفها كذلك بالأزهر الشريف:

سريت من بلد أسعـى إلى بلد حتى أتيت إليهم فى ديارهم

وبت فى جبل من بعده جبل أرجو الإله شهودا فى جمالهم

***

عندما وصل الشيخُ صالح إلى القاهرة، ووطأت أقدامه أطهر بقعة فى أرض مصر، وهى التى تشتمل على مسجد ومقام سيد الشهداء سيدنا الحسين عليه السلام، والجامع

الأزهر الشريف موئل العلماء والأولياء كان كأنه رُدّ إلى موطنه الذى تعلق به قلبه بعد طول غياب فكانت معظم أوقاته وتحركاته تدور فى ذلك المحيط الضيق الذى يفصل بين المسجدين الكبيرين، فلم يكن يغادر الأزهر إلا لزيارة سيدنا الحسين وحضور بعض الدروس التى تكون فى رحابه ثم يرجع منه إلى الأزهر.

أحب الشيخ الأزهر محبة بالغة، لم يحب الأزهر كبناء ولكن أحبه لما حواه من علوم وعلماء وأسرار وأنوار وبركات..

بناه الفاطميون الذين حكموا مصر قرنين من الزمان ليكون جامعة تدرس العقيدة الشيعية وتدعم الدعوة إليها فى أنحاء البلاد، فغلبت إرادة الله الذى أراد بأهل مصر الخير ببركة مصاهرتهم النبى ﷺ ووصاته بهم فحباهم بسكنى نفر عزيز غالٍ من أهل بيت النبوة، ثم أتم نعمته عليهم بإقامتهم على عقيدة أهل السنة والجماعة التى هى الإسلام دين الله الخاتم الذى ارتضاه للناس إلى يوم القيامة. فإذا بالجامع الأزهر يصبح الجامعة التى تدرس علوم السنة، وتحفظ على الأمة دينها المتين.

لقد تحول الأزهر عبر القرون إلى رمز جليل لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق.

۞۞۞

فى القاهـرة:

كانت القاهرة آنذاك تختلف اختلافًا كبيرًا عن "دنقلا"، فحين قدم الشيخ إليها صدمته للوهلة الأولى مظاهر الحياة الغربية التى كست وجه المدينة، وخاصة تبرج النساء واختلاطهم بالرجال، فتضايق لذلك جدا وهم بأن يعود أدراجه إلى بلده الهادئ العفيف الذى يساعد على حياة الزهد والعبادة.

ذهب الشيخ لزيارة سيد الشهداء أولا، لعله فى رحابه يجد استقرار أمره وطمأنينة

قلبه، وفى رحاب السيد لقيه الشيخ العارف بالله محمد إبراهيم السمالوطى -من علماء الأزهر- فكاشفه بما يعتمل فى نفسه وقال له:

-"لا تظن أن الأولياء يعيشون فى الخلوات ويفرون من الناس فى المغارات فقط، ولكن الولى الصادق هو الذى يعيش وسط العقارب فلا تتمكن من لدغه، فامكث هنا وجاهد نفسك..

الآن حصحص الحق، واستنار الأمر بنور من الله، وقال الشيخ صالح فى نفسه: هذا شيخ عارف لن أفارقه ما حييت.

وفعلا لازم شيخنا الشيخ السمالوطى ونال على يده من العلوم والأنوار ما ستجيء الإشارة إليه عند الكلام عن مشايخه.

***

أعطى الشيخ صالح نفسه كلها لله، فأعطاه الله من وسيع فضله، كان طلبه للعلم لله، لا لدنيا يريدها أو منصب يسعى إليه.

لقد امتلأ قلبه بحب الله، وانشغلت جوارحه بذكره ليل نهار، كان يقضى ليله كله يدور فى صحن الجامع الأزهر وفى يده مسبحته يذكر الله غير عابىء بشىء حتى يسمع أذان الفجر.

منذ وطأت أقدامه أرض الكنانة كانت تأتيه بعض الأموال من والده ليستعين بها على العيش، فكان ينفقها كلها على فقراء الطلبة والمحتاجين، ويعيش فقيرًا يشارك الفقراء حياتهم وطعامهم، تمر عليه أوقات كثيرة لا يجد فيها طعامًا يأكله فيبيت طاويًا تأسّيا بأسعد الخلق ﷺ وبسلف الأمة الصالح..

يسترجع الشيخ ذكريات تلك الأيام فى أحد دروسه فيقول:

"كنا نبيت على الطوى ليالى كثيرة، بل إننى مكثت أربعة أيام لا أجد ما آكله، وكنت أزور بعض معارفى فكان يسألنى: هل تريد أن تأكل؟ فكان الحياء والخجل يغلبانى، فأرد قائلا: قد أكلت. وهكذا بلغ بى الجوع حدًا جعلنى أبكى قبل النوم، فجاءنى السيد أحمد البدوى - رضى الله عنه- فى المنام وعلى وجهه لثامان، ثم كشف عن وجهه فوجدته أبيض كالقمر، ثم وضع يده على وجهى وقال: لماذا تبكى يا شيخ صالح؟ فقلت: من شدة الحاجة، فقال لى: سيوسع الله عليك إن شاء الله، ولكن لا تنس إخوانك".

هذه هى حياة أهل الله، سادة الدنيا وملوك الآخرة، ضرب المثل عليها بنفسه سيد الكائنات ﷺ، واقتدى به فيها جلة أصحابه، وأصبح الزهد فى الدنيا والتقلل منها لازمة لطالبى الآخرة. وأولى الناس بهذه الحياة هم طلبة العلم الذين يُعدّون ليكونوا قادة للأمة هداة للناس. هذه هى الحقيقة المضيئة التى عبر عنها إمامنا عبد الله بن المبارك بكلمته الخالدة التى يحق أن تكتب على واجهة كل معهد علمى فى بلاد الإسلام:

طلبنا العلم للدنيا، فدلّنا على ترك الدنيا.

۞۞۞

الأزهر:

أحب الشيخ الأزهر محبة كبيرة، ومن أحب طيبًا رُزق خيره، استمع إليه حين يتكلم عن الأزهر لترى دفء هذه المحبة وقوة نبضها:

"الأزهر هو الأزهر: شرع إلهى، وميراث محمدى، محفوظ بحفظ ما فيه، لأنه حوى القرآن وما فيه من فنون ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ

لَحَٰفِظُونَ ﴾. ترفرف فوقه روح صاحب السنة؛ إذ فيه سنته النبوية، وعلماء أمته الذين هم ورثته وخلفاؤه، فهو مكان نظر الله -تعالى- وعنايته، وموضع الذين استشهد بهم على وحدانيته، ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ فهو يحوى العدول، وبه العدالة تعرف، ومنه تبعث، لا يُظلِمُ إذا أظلم الكون، وفيه نور الله، استنارت به القلوب، وهديت بهديه الشعوب، قوى الحجّة، واضح المحجّة، فيه استبصار لجميع المسلمين ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ مرفوع الذكر والدرجات برفع الله تعالى لعلمائه، فلا يخفضه خافض، فمن دنا منه رُفع، ومن عاداه وضع، له سيف قاطع وبرهان ساطع، وتجارة لن تبور، ومنافع فى مشارق الأرض ومغاربها، فهو كالغيث للنبات ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ هم الذين اصطفاهم الله، فهم صفوة الله فى عباده بعد رسله، فلله تعالى اصطفاء فى كل زمان، وجعل لمصر الحظ الوافر من هذا الاصطفاء، بأزهرها الذى رفع شأنها، وأعلى ذكرها، وجعلها كعبة للقاصدين، ورحمة للمسلمين، ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ولا يكون وارثا حقا حتى يعلم ما فى الكتاب، وللأزهر فى ذلك القدم الراسخ، والباع الطويل، واليد العليا، ولقد جعل الله الأزهر موضع التفقه فى الدين، وإليه الهجرة والنَّفرة، وبه الإنذار للشعوب والأمم، فهو أزهر الأمة المحمدية، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾.

وهو مكان لزيادة العلم التى أرشد الله -تعالى- إليها نبيّه ﷺ بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾.

وهو مكان الحسنى وزيادة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ فالحسنى هى العلم، والزيادة: هى الزيادة منه، والتفهم فيه، والتبحر فى معانيه وهذا فى الدنيا، وفيه رجال المعاهدة الصادقون، الذين حافظوا على التراث المحمدى من غير تبديل ولا تغيير، من مات منهم مات على ذلك، ومن عاش منهم عاش على ذلك، ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ وفيه رجال الأمر والاستنباط، الذين أمر الله الشعوب أن ترد الأمر إليهم ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ وأولو الأمر: هم أولو العلم، لقوله تعالى (لعلمه).. ولا يخلو شعب من الشعوب إلا وفيه أشباله. أسودٌ: عمائمهم تيجانهم، وعدتهم إيمانهم، وما من خير إلا وهم قادته والداعون إليه، ففى الجهاد هم السابقون، وفى الآراء هم المفكرون، ارتضاهم الله حملة لدينه، وأئمة لعباده، ومرشدين لخلقه، فهم مصابيح الأمم، وأقمار الشعوب، وبهم إصلاح المجتمع، يحافظون عليه من الوحوش الضارية، والكوارث السامة، والعقائد الزائفة، والآراء الفاسدة، ومن عبث العابثين، وتخريف المخرفين، لايضل شعب وفيه منهم عالم، فهم الزائرون على المنابر، وهم الخطباء فى النوادى، والكاتبون فى الصحف والمجلات. أقوالهم كالأسنة تقطع كل قول ضالّ، وتزجر كل منافق، وتهدى كل حائر، وتبين الغوامض

من الأمور، والمشكلات من المسائل.

فمن أكرمهم أكرمه الله، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عن الله، مجالسهم مجالس الله، يقولون بقوله، ويهدون لأحكامه، ويحافظون على حرماته، فمن أحبهم فبحب الله أحبهم، فهم أهل الله وخاصته، وخلاصة خليقته"..

***

لقد اقترنت محبته للأزهر بمحبته لأهل البيت، فهما فى واقع الأمر شىء واحد، لا انفصال بينهما فى قلب المؤمن قط، بيّن هذه الحقيقة سيد الكائنات ﷺ حين قال موصيًا أمته: "إنى أوشك أن أدعى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى، وإن اللطيف الخبير أخبرنى أنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض يوم القيامة، فانظروا فيما تخلفونى فيهما".

[رواه مسلم والترمذى والحاكم فى المستدرك وأحمد فى مسنده]

ولعل وجود الأزهر فى مواجهة مقام سيدنا الحسين فرع الدوحة النبوية المباركة لمّا يشير إلى هذا المعنى، واسم الأزهر نفسه المستمد من اسم سيدتنا الحبيبة الطاهرة المباركة "الزهراء" فاطمة ابنة رسول الله ﷺ وأم المباركين الطاهرين من أهل البيت عليهم سلام الله وبركاته. يخاطبها شيخنا الجعفرى مشيدا بالجامعة التى حملت اسمها فيقول:

فيا زهراء أزهركم منير ومن بركات والدكم تشعّب
وعمّ العالمين سنا ضياه فكل المسلمين إليه تطلب
سألت الله يكلؤه بنصر ومن يبغى له الإذلال يُنكب

۞۞۞

شيوخه بالأزهـر

ما أجمل أن نمضى فى هذه الصفحات القليلة -وياليتها كانت كثيرة- مع تلك الثلة المباركة من علماء الأزهر الذين سعد شيخنا برؤيتهم، وتلقى على أيديهم العلم والأدب.. بمثلهم تضاء ظلمات الجهالة، وتُتقى شرور الدنيا وآفاتها.

لم يُحرم الأزهر من أمثالهم فى أى عصر من العصور، ولكن لا يعرف قدرهم وينتفع بهم إلا أهل السعادة، من أريد بهم الخير، والمحرومون تعشى أبصارهم عن رؤية أنوارهم الساطعة. لذلك رأينا من بعض من تخرجوا من الأزهر من وصفوه بكل قبيح ووصفوا شيوخه بالتخلف والجمود..

وأى عجب فى هذا وأنبياء الله قد رآهم أقوامهم فمنهم من آمن بهم وتفانى فى محبتهم، ومنهم من أبغضوهم وكذبوهم ورموهم بكل نقيصة.

الأزهر هو الأزهر، والشيوخ الصادقون لا يخلو منهم زمان، ولكن الاختلاف فى قلب المتكلم. وفى أشواقه؛ أهى للدنيا أم للآخرة؟! استمع إلى كلام الجعفرى يقول:

"وحينما جئت إلى الأزهر وجدت عند كل عمود شيخا يدرس العلم، وكانت دموعنا تسيل من دروس العلماء، ومن لمعان وجوههم، لهم طريقة فى التدريس والكلام تقشعر لها القلوب، وكان لعلماء الأزهر نُطق حسن، ونبرات مخصوصة فى إلقاء العلم والدروس، وكان الشيخ السمالوطى -رحمه الله- يقرأ الحديث كما لم يقرأه أحد من قبل، حتى إنك لتحس بأن الرسول ﷺ يتحدث".

ويصف شيوخه بالأزهر فيقول:

"لقد كان مشايخ الأزهر أصحاب محبة وعقيدة، وكانت زيارة

الإمام الشافعى يوم الجمعة عادة حميدة كانوا حريصين عليها.

(وسبب ذلك كما بينه الشيخ) أن الشيخ على الصعيدى العدوى كان يقول لتلميذه –الدردير– رضى الله عنه: يقولون إنك ترى رسول الله ﷺ، كثيرًا، فإذا رأيته فاسأله عن حالى، ففعل فرأى النبى ﷺ يقول له: إنه رجل صالح، غير أنه به جفوة، فلما سمع الشيخ الصعيدى ذلك الكلام بكى كثيرًا، فسأله تلميذه الدردير: ما يبكيك؟ قال: يعاتبنى رسول الله ﷺ على تقصيرى فى زيارته، وقد تقدمت بى السنّ ولا أستطيع تحمل مشقة السفر، فإذا رأيته مرة أخرى فأخبره بذلك، ففعل، فرأى النبى ﷺ يقول له: قل له – أى للشيخ الصعيدى "أنا عند الإمام الشافعى كل يوم جمعة من بعد صلاة العصر إلى الفجر، فليأتنى هناك " فذهب الشيخ على الصعيدى العدوى إلى علماء الأزهر، وأخبرهم بذلك، وأصبحت عادة عندهم أن يزوروا الإمام الشافعى كل يوم جمعة فوج يتبعه فوج، من العصر إلى الفجر فى ذلك العصر الزاهر وقت أن كان العلماء علماء، والطلبة طلبة حقًا".

***

ها هم بعض مشايخه بالأزهر الشريف، وصفهم بأجمل وصف، وعرّف بهم بأبهى تعريف إذ كانت عينه الفاحصة تبحث فى خبايا كل منهم عن مواطن الجمال ومنابع النور.

۞۞۞

الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى:

كان اللقاء الأول بينه وبين شيخه السمالوطى فى رحاب سيدنا الحسين حين كاشفه

بما يختلج فى صدره -كما سبق أن رأينا- وقال له: "الولى الصادق هو الذى يمكث وسط العقارب ولا تتمكن من لدغه".

يقول الشيخ:

"وكانت تلك أول كلمة سمعتها من الشيخ السمالوطى، فتعجبت من ذلك وقلت: أيوجد فى هذا البلد مثل هذا الرجل من أرباب القلوب والكشف ثم أتركها؟ فجلست فى درسه وأحببته وكنت أحضر درسه فى مسجد مولانا الحسين رضى الله تعالى عنه".

فى ذلك الدرس كان الشيخ السمالوطى يشرح الحديث النبوى الشريف ومر بنا قول تلميذه الجعفرى "إنه كان يقرأ الحديث حتى إنك لتحس بأن الرسول ﷺ يتحدث".

وفى مرة ذكر الشيخ الجعفرى فى درسه حديث النبى ﷺ الذى يقول فيه: "احفظ الله يحفظك" فقال:

"ومما من الله به على أننى تلقيت هذا الحديث بشرحه عن شيخى الشيخ محمد السمالوطى بالمسجد الحسينى، شرع يشرح فيه من بعد العصر إلى قرب المغرب، وكان ذلك فى شهر رمضان المبارك، ومن كلامه:

احفظ الله فى أوامره يحفظك فى دينك وفى جسمك وفى مالك وفى ذريتك وفى زوجتك وفى أهلك وفى حياتك وفى موتك وفى قبرك وفى بعثك وفى المحشر".

ومرة أخرى يقول:

"سمعت من شيخى محمد السمالوطى -عليه الرحمة والرضوان-

حكاية ذكرها عندما قرأ حديث "احفظ الله يحفظك" قال: وقع رجل تقى فى شدة وهى أن امرأة دعته إلى بيتها، فلما وصل للبيت غلّقت الأبواب، ودعته إلى نفسها، فأمرها بطعام فذهبت لتأتيه به، فقام وتوضا، وصلى ركعتين، وقال: اللهم هذه التقوى فأين المخرج؟ فانفلق له الجدار فخرج منه، فجعل الله له مخرجًا بسبب تقواه".

ويروى عن شيخه قصة أخرى تدل على ما كان له من مقام عالٍ ومن كشف فقال:

"وكنت أجلس فى درس الشيخ السمالوطى على يمين الكرسى الذى كان يجلس عليه، فقلت بقلبى: هل النبى ﷺ - مع الشيخ كما يقول؟ فقال الشيخ لى: نعم يا ولد، نعم يا ولد، نعم يا ولد".

۞۞۞

الشيخ محمد بخيت المطيعى:

عرّفنا به الشيخ فقال: "شيخى الشيخ محمد بخيت المطيعى -رحمه الله- عاش ١٠٣ سنة، وظل يتردد على الجامع الأزهر ليدرس فيه حتى توفى -رحمه الله- وكان يدرس فى الرواق العباسى، كان ذات مرة يقرأ الدرس فى تفسير آية الصبر وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فأراد أن يضرب مثالا على الصبر كيف يكون؟ فقال: كأن يسبُّ "دخيل الله" صالح، و "صالحًا" يصبر.

وكان الشيخ "دخيل الله" زميلاً للشيخ صالح فى الدراسة، وكان قد سبّه قبل حضورهما الدرس مباشرة، فكان ذلك كشفًا للشيخ المطيعى رحمه الله.

ولما كان الشيخ المطيعى يفتتح درسه بهاتين الآيتين من القرآن: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ و﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الآيه، فقد أخذ الشيخ

الجعفرى هذا الاستهلال عن شيخه، فكان يفتتح به درسه أيضا اقتداء بشيخه المطيعى.

ومناقب الشيخ محمد بخيت المطيعى تتناثر هنا وهناك فى دروس الشيخ وفى كتبه، ومنها قوله:

"وبعد وفاته -رحمه الله- ظهر أشخاص ينادون بترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية، فوُجد عند الشيخ (المطيعى) ضمن كتبه رسالة سمّاها الشيخ [حجة الله على خليقته] قال فيها: ومن ترجم القرآن إلى اللغات بغير العربية فقد كفر ، لأن الله تعالى يقول: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ ويقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

۞۞۞

الشيخ حبيب الله الشنقيطى:

قال الشيخ عنه:

"شيخى حبيب الله الشنقيطى -رحمه الله- لقد شاهدت منه كرامات منها: أننى ذهبت إلى بيته بجوار القلعة ناويًا بقلبى أن أستأذنه فى أن أكون مقرئًا له متن حديث البخارى ومسلم، فلما وصلت البيت، وجلست بغرفة الاستقبال، وهى أول مرة أزوره بها، جاءنى متبسمًا، فلما سلمت عليه وقبلت يده، قال لى: "أنت الذى -إن شاء الله- ستكون سرادًا لى هذا العام" ومعنى "سرادًا": مقرئًا، والحمد لله قد لازمته إلى الممات، ونزلت قبره، ولحدته بيدى".

وقال أيضا:

"وكنت أقرأ للإخوان الحاضرين درسًا قبل حضوره بالمسجد

الحسينى، فإذا عارضنى إنسان أو شاغبنى يهمس لى فى أذنى عند جلوسه على الكرسى بقوله: "يعاكسونك وأنت خير منهم" كأنه كان معى، ثم يأتى فى درسه بكل موضع حرفت فيه شيئًا، أو ذكرته ناقصًا، كأنه كان جالسًا معى يسمع ما قلته وقد حصل ذلك منه مرات كثيرة، وكان إذا حصل له عذر يرسل لى تلميذًا أن اقرأ الدرس نيابة عن الشيخ".

"وفى يوم أرسل لى ورقة مكتوبة بخط يده فيها:- "قد وكلتك بقراءة الدرس" فتعجبت من ذلك: لماذا غير الشيخ عادته من المشافهة إلى المكاتبة؟ وما أشعر إلا ومدير المساجد قد حضر وأنا أقرأ الدرس، فسألنى: وهل وكّلك الشيخ؟ قلت: نعم، قال: وأين التوكيل؟ فقدمت له الورقة المرسلة من الشيخ، ففرح بها، ودعا لى بخير، فكانت هذه كرامة منه -رحمه الله تعالى- وغفر له وأسكنه فسيح الجنان، فإنه كان يحبنى كثيرًا ويقول لى أنت بركة الدرس، قد أجزتك بجميع إجازاتى ومؤلفاتى".

".. وقد لازمته خمس عشرة سنة، وكان يبدأ الحديث، فيغوص فى بحر التراجم وشرح الحديث، ويأتى بتفسير آيات قرآنية ومسائل فقهية وأصولية، وغير ذلك.

فقد كان يحفظ القرآن الكريم بالقراءات، ومعه بذلك إجازة من بلاده، وألف كتابا أسماه "تيسير العسير فى علوم التفسير" وله نظم فى القرآن بالقراءات السبع حلت من رموز الشيخ الشاطبى -رحمه الله- وله منظومة فى أدلة التوسل، وكان يقول: عليك بشرحى على زاد

المسلم فإننى ما تركت فيه شاذة ولا فاذة".

"وكان له حب عظيم لمولانا الشريف السيد أحمد بن إدريس – رضى الله عنه– ولذريته".

سمعت منه رحمه الله أعجوبة ذكرها فى أثناء درسه بالمسجد الحسينى فى شهر رمضان قال: "كنت معتكفًا بالمسجد النبوى فى العشر الأواخر من رمضان فخطر بقلبى مامنّ الله تعالى به على سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه من تسليمه ومصافحته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فدنوت من المقصورة النبوية وسلمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنشدته البيتين الذين أنشدهما سيدى أحمد الرفاعى فمدّ لى صلى الله عليه وآله وسلم يده الشريفة فقبلتها". أ هـ وهذه القصة ماسمعتها منه إلا فى العام الذى قبض فيه".

***

لم يكن الشيخ الشنقيطى منكبًا على العلم والعبادة فحسب، ولكنه كان مهمومًا بأحوال الأمة، مشغولاً بشئونها، روى الشيخ الجعفرى عن شيخه الشنقيطى قوله:

"رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى النوم فقلت له ياأمير المؤمنين، أنت موجود والحال هكذا؟.. فقال لى بصوت عال فيه أثر الغضب: دعك من أصحاب هذا الزمن فإن الله تعالى لا يعبأ بهم، وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر، ماذا أفعل".

توفى العلامة حبيب الله الشنقيطى رحمه الله فى شهر صفر ١٣٦٣هـ . وقد شهد الإمام الجعفرى رضى الله عنه وفاته، ودخل قبره، ولحده بيده.

۞۞۞

الشيخ يوسف الدجوى:

وقال عن شيخه الدجوى:

"وقد لازمت درسه بعد صلاة الصبح بالجامع الأزهر الشريف بالرواق العباسى سبع سنين، وكان السيد الحسن الإدريسى إذا جاء من السودان يلقانى فى درسه، وبعد الدرس يسلم على الشيخ فيفرح فرحًا عظيمًا، ويقول السيد أحمد بن إدريس قطب لا كالأقطاب، وكان الشيخ الدجوى قد أخذ الطريقة الإدريسية عن شيخى السيد محمد الشريف رضى الله عنه، والشيخ الدجوى من هيئة كبار علماء الأزهر، وله مؤلفات نافعة، ومقالات قيمة فى مجلة الأزهر الشريف، ولما نظمت المنظومة المسماة: البردة الحسنية الحسينية، أهديت إليه نسخة".

وقد حضرت عليه التفسير من سورة "محمد" صلى الله عليه وآله وسلم. إلى آخر سورة "الناس" ثم ابتدأ شرح البخارى بعده، وكان يحفظ القرآن العظيم بالتجويد والقراءات، ويذكر أقوال المفسرين. ويعرب الآية إعرابًا دقيقًا، ويبين الألفاظ اللغوية فيها، ويتعرض للأحكام الفقهية على المذاهب، وكان يقرأ الحديث بالسند، ويترجم لرجاله ترجمة طريفة، ويذكر أقوالاً كثيرة عن شراح الحديث. وكان له الباع الطويل فى مسائل التصوف، والانتصار للصوفية وله أبحاث كثيرة قيمة فى أدلة التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم، ذكر أكثرها فى مجلة الأزهر المسماه فى ذلك الوقت "نور الإسلام" فعليك بهذه المجلة لأجل أقوال هذا الشيخ فإنها نافعة. وكان رحمه الله مرة

يقرأ حديث سؤال القبر فى البخارى، وكنت ذاكرت شرح الكرمانى على البخارى، ورأيت فيه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم - يظهر للمسئول عند قول الملك له: "ما تقول فى هذا الرجل"؟ وبعد انتهاء الدرس قبلت يده، وقلت له: يقول الشيخ الكرمانى: إنه صلى الله عليه وآله وسلم يظهر للمسئول، فوكزنى فى صدرى وقال لى: أنا ذاكرت شرح الكرمانى، واطّلعت فيه على هذه المسئله، لماذا لم تذكرّنى فى الدرس حتى يسمعها منى الناس؟".

***

وكان مرة يتكلم عن رؤية النبى صلى الله عليه وآله وسلم -منامًا فقال: إن الشيطان لا يتمثل به صلى الله عليه وآله وسلم - إذا جاء فى صورته الأصلية والمعتمد أنه -أيضا- لايتمثل به فى غير صورته الأصلية، فقلت له: روى شيخنا السيد أحمد بن إدريس رضى الله عنه فى كتابه المسمى "روح السنة" أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: "من رآنى فقد رآنى فإنى أظهر فى كل صورة". ففرح فرحًا عظيمًا وقال لى: - هذا الحديث هو الدليل على أن الشيطان لايتمثل به صلى الله عليه وآله وسلم. ولو جاء فى غير صورته الأصلية، أنت مبارك يا شيخ صالح، نفع الله بك المسلمين".

"وقد أنشدنا الشيخ الدجوى بدرس التفسير بالجامع الأزهر عام ١٣٦٠هـ:

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليـــس مؤانس وحبيب قلبى فى الفـؤاد أنيسى

وقد توفى العلامة الشيخ يوسف الدجوى -رحمه الله تعالى رحمة واسعة- فى ٥ صفر سنة ١٣٦٥هـ عن ثمان وسبعين سنة، أى بعد وفاة الشيخ حبيب الله الشنقيطى بسنتين".

۞۞۞

الشيخ على الشائب:

قال عنه الشيخ صالح:

"كان الشيخ على الشائب إذا دخل قبة سيدنا الحسين -رضى الله عنه- لا يتكلم مع أحد أبدًا، ويحصل له حال خشوع عجيب، كأنه يشاهده وينزل عليه عرق كثير، وكنت أدرس عليه أيضًا شرح ابن عقيل على ألفيه ابن مالك، وفى ليلة من الليالى رأيت النبى ﷺ، فى النوم وكان يحدثنى فى مسألة علمية أخطأت فيها، فغضب صلى الله عليه وآله وسلم وقال لى: "ياولد" وذلك من ضمن كلام يطول، فلما أصبحت وحضرت فى الدرس قلت فى نفسى وأنا جالس: يقول لى النبى ﷺ، ياولد فهل أنا صغير؟ فالتفت إلىّ الشيخ وهو يدرس وقال: إنما قلنا لك ياولد كعادة العرب لا لأنك صغير.

ومرة رأيت وجهه صار فى صورة عجيبة، وبلحية طويلة، ثم تحول إلى وجه آخر، فقلت فى نفسى، ما هذا؟ رد الشيخ علىّ وهو يدرس: هذا الوجه الذى رأيته هو وجه سيدنا الحسين -رضى الله عنه- والثانى وجه الإمام الليث -رضى الله عنه- ثم رجع إلى درسه،

إلى المكان الذى كان يقرأ فيه. وأمثال هذا الشيخ عند الصوفية يسمّوْن أرباب القلوب، ولعلهم يكونون المحدَّثين الذين منهم سيدنا عمر – رضى الله عنه– كما فى حديث البخارى".

***

ويمضى الشيخ فى ذكر شيوخه، فلا تخفى على السامع محبته وتوقيره وتعظيمه لهم، وهو دائما أبدًا يردد الحديث عنهم مرات ومرات فى دروسه وفى كتبه كأنه يتلذذ بذكرهم، ويقول مع القائل:

كرِّر علىَّ حديثهم ياحادى فحديثهم يروى الفؤاد الصَّادى

۞۞۞

رجال الأزهر:

وبعد.. فهذه نُبذ سريعة مما ذكره شيخنا الجعفرى عن بعض مشايخه بالأزهر الشريف، كنت أتمنى أن أضيف إليها بعض ما يزيد من معرفتنا بهم، ولكنى عجزت عن أن أجد ما يساعدنى على ذلك بسهولة، إذ لم أجد كتابًا يُستعان به فى طبقات علماء الأزهر، ولم أجد من له علم بوجود مثل هذا الكتاب الجامع.

وإن هذا مما يبعث على الدهشة. أيكون مثل الأزهر من يقع فى حقه مثل هذا التقصير فى أمة العلم والعلماء؟ والأزهر أعرق مؤسسة علمية على وجه الأرض، له من الفضل على أهل الإسلام فى الدنيا كلها مالا ينكره أحد، خرّج من العلماء العاملين، والهداة المهديين، والدعاة المخلصين مالم يتح لمكان غيره، ذهب إليه الطلاب من جميع أقطار الإسلام ليعودوا إليها بعد إتمام دراساتهم لينشروا فيها العلم الصحيح ويجمعوا الأمة على كلمة سواء.

لذلك حورب الأزهر فى مختلف العصور من المبتدعة وأعداء الإسلام، وتواطئوا

معًا فى محاولة تشويه صورته والحط من شأن رجاله وأعلامه..

كيف لم تعتنِ إدارات جامعة الأزهر المتعاقبة على إخراج مثل هذا المرجع المهم؟! وكيف لم يتوافر لهذا الأمر أحد من المخلصين يقوم بإنجازه كما أنجز المحبى والمرادى والبيطار جمع طبقات أعلام الأمة فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر الهجرية وغير ذلك من أعمال عظيمة وجليلة قام بها رجال فى شتى المجالات؟! حتى أن بعضهم كتب طبقات علماء مدينة بعينها مثل دمشق وغيرها.

لقد خرّج الأزهر رجالاً على مر العصور، لا نفتخر بهم فحسب، ولكن يمكننا أيضا أن ننتفع بهم كما انتفع بهم معاصروهم، فإن أهل الصدق يُنتفع بهم أمواتا كما انتُفِع بهم وهم أحياء، بل من العارفين من يجزم بأن النفع بهم بعد موتهم يكون أعظم، لأنهم وقد انتقلوا إلى الحياة البرزخية قد تخلصوا من معوقات المادة وسجن الجسد، وأصبحت أرواحهم حرة طليقة. لذلك قالوا: إن من كتب عن ولى مجهول فكأنما أحياه فى الناس.

اللهم وفق لهذا الأمر من يقوم به مخلصًا لك، واثقًا بك، واجزه عنه جزاءً يغبطه عليه الأولون والآخرون.

آمين.. آمين.. آمين..

۞۞۞

مشايخه فى الطريق:

نرجع مرة أخرى إلى رحاب شيخنا الإمام الجعفرى الحسينى الأزهرى رضى الله عنه فى حديثه الحميم عن مشايخه لنقول:

أما حديثه الذى لا ينقطع، تتردد أصداؤه فى صدره كما تتردّد بين جنبات الجبال الشامخة، فهو حديثه عن مشايخه فى الطريق، من كان لهم الفضل فى تربيته وإرشاده قبل أن يجيىء إلى الأزهر، وظل يعيش فى كنفهم و يستمد من أنوارهم طوال حياته، لا يترك

مناسبة إلا ذكرهم بأعطر الذكر واعترف بجميل فضلهم عليه.

فى كتابه"الإلهام النافع" ذكر الشيخ قصة من قصص التربية فقال:

"سمعت حكاية عن بعض العلماء أن تلميذًا للشيخ (أبى حامد) الغزالى رضى الله عنه صار يدرس بالبلد التى بها شيخه، فحدثته نفسه بالخروج من تلك البلدة وأنه استغنى عن الشيخ. فركب السفينة وسافر، ففى وسط البحر اضطربت الأمواج وتحركت السفينة، فقال للبحر: اسكن يا بحر إنما عليك بحر مثلك.

فمدت إليه سمكة من البحر رأسها وقالت له: يا أيها البحر ما قولك فى رجل مسخ هل تعتد زوجته عدة وفاة أم عدة طلاق؟

فسكت ولم يجب بشىء، وقال لملاح السفينة: رد السفينة إلى حيث بدأنا السير، فرجع إلى الشيخ الغزالى، فقال له: ما الذى ردك من سفرك؟ قال: سؤال سُئلته.

ثم ذكر له سؤال السمكة، فقال له الشيخ الغزالى:

ننظر فيه إن كان مُسخ حجرا اعتدت زوجته عدة وفاة. وإن كان مُسخ حيوانا آخر اعتدت عدة طلاق.

فرجع التلميذ، فلما وصل المكان من البحر خرجت له السمكة، فقال لها الجواب الذى سمعه من شيخه، فقالت له السمكة: "ذاك البحر لاأنت"أهـ.

ثم يعلق شيخنا على هذه القصة فيقول فى تواضع الأولياء وإخبات العارفين:

"وهكذا إن شاء الله كلما وقفت فكرتى رددت سفينتى حتى يقال

لى: ذاك من الشيخ لا منك".

فمن شيخه الذى استمد منه الفيوضات والأنوار؟

۞۞۞

قطب الزمان ومنهل العرفان

سيدى أحمد بن إدريس:

الإمام الذى جمع علمى الظاهر والباطن، شيخ المشايخ القطب الربانى صاحب الأحوال الشريفة، والمقامات المنيفة، حجة العارفين وقدوة السالكين وبقية السلف الصالحين سيدى أحمد بن إدريس الحسنى نسبًا، المغربى مولدًا، من ذرية السادة الأدارسة بالمغرب.

حفظ القرآن صغيرًا، وكثيرًا من المتون، ونال قسطًا وافرًا من العلوم حتى بلغ العشرين من عمره فانتقل إلى فاس ليلتحق بجامع القرويين فى طلب العلم، وكان كثير الرحلة فى طلب المشايخ الكبار إلى أن جمعه الله على شيخه وأستاذه العارف بالله الشيخ عبد الوهاب التازى الذى تم أمره على يديه. وكان قد كبر سنه، وكان أحيانا يقول بين تلامذته امتحانا لهم: وددنا لو أن أحدًا جاء لنا بفاكهة بلد كذا. فيقول بعض الحاضرين: كبر سن الشيخ فيتكلم بمثل هذا. لكن السيد أحمد يأخذ كلام الشيخ مأخذ الجد، فيقوم ويتهيأ ويتزود للسفر حالاً، ثم يأتى لوداع الشيخ قائلا: يا سيدى إنى مسافر لذلك. فإذا قبل يده قال له سرًّا فى أذنه: يا أحمد أمرنا كله جد. من أعطى الجد يُعط الجد.

وكان الشيخ عبد الوهاب ممن لا يظهر حاله، وكان أحيانا يحضر درس السيد أحمد بن إدريس قبل اجتماعه عليه، وكان يعجب ببلاغته وقوة صوته. فلما اجتمع به وتتلمذ

عليه لازمه وكان لا يرفع صوته أمامه أدبًا، فكان الشيخ التازى يقول له أحيانا: أين تلك الهدرة يا أحمد، ويعنى بذلك نبرات صوته القوية عندما كان يدرس ببلدة "تازة".

بعد وفاة شيخه التازى سعى إلى غيره؛ فذهب إلى الشيخ أبى القاسم الوزير، ولكن صحبته له لم تطل إذ توفى أيضا، وراح السيد أحمد يبحث عمن يصاحبه من المشايخ، ورحل فى سبيل ذلك إلى المشرق..

قال: "مما وجدت من المنفعة فى خدمة المشايخ كان لى حرص عظيم، وكنت أظن أنى لا أنقطع أبدًا عن صحبة واحد بعد واحد، حتى قيل لى من الحضرة الإلهية: لم يبق على وجه الأرض أحد تنتفع منه إلا القرآن. فجلست سنين عديدة لا أشتغل بشىء غير القرآن العظيم. ثم آخى رسول الله ﷺ بينى وبين القرآن وقال: أبدلك ما فيه من العلوم والأسرار (فى المنتقى النفيس، وكذا عند التليدى: أبدله ما فيك من العلوم والأسرار)".

فكان رضى الله عنه إذا سئل عن آية من القرآن العظيم يأتى من الحقائق من معانيه ودقائقه ما يبهر العقول وتعجز دونه الأفكار والنقول..

***

قال رضى الله عنه:

"اجتمعت بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم اجتماعًا صوريًّا ومعه الخضر عليه السلام، فأمر النبى ﷺ الخضر أن يلقننى أذكار الطريقة الشاذلية، فلقننى إياها بحضرته، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم للخضر عليه السلام: يا خضر لقنه ما كان جامعا لسائر الأذكار والصلوات والاستغفار، وأفضل ثوابا وأكثر عددًا فقال: أى شىء هو

يا – رسول الله؟ فقال: قل(لا إله إلا الله محمد رسول الله فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله) فقالها وقلتها بعدهما، وكررها صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثا ثم قال: قل: (اللهم إنى أسألك بنور وجه الله العظيم) إلى آخر الصلاة العظيمية: ثم قال له قل: (أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم غفار الذنوب ذا الجلال والإكرام) إلى آخر الاستغفار الكبير، فقلت بعدهما وقد كسيت أنوارًا وقوة محمدية، ورزقت عيونا إلهية، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا أحمد قد أعطيتك مفاتيح السموات والأرض، وهى الذكر المخصوص والصلاة العظيمية والاستغفار الكبير المرة الواحدة منها بقدر الدنيا والآخرة، وما فيهما أضعافا مضاعفة. ثم لقنها لى صلى الله عليه وآله وسلم من غير واسطة، فصرت ألقن المريدين كما لقّننى به صلى الله عليه وآله وسلم، ومرة قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله. خزنتُها لك يا أحمد، ما سبقك بها أحد، علِّمها أصحابك يسبقون بها).

وكان رضى الله عنه يقول: "أملى علىَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأحزاب من لفظه، حتى استشكل بعض أصحابه من العلماء مرة كلمة فى الحزب الخامس. فقال: يا أخانا هكذا قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم".

لذلك كان رضى الله عنه يقول: أخذنا العلم من أفواه الرجال كما تأخذون، ثم عرضناه على الله والرسول فما أثبته أثبتناه، وما نفاه نفيناه.. يا ويلى يوم العرض على الله إن غيرت أو بدلت.

***

مر السيد أحمد فى رحلته إلى الشرق ببلاد شمال أفريقيا ومصر، ثم استقر بمكة حيث أقام بها نحوا من ثلاثين سنة ناشرا العلم والهدى والنور، ثم رحل بعدها إلى اليمن فاستوطن "صبيا" بقية عمره بعد أن كانت طريقته قد انتشرت فى بقاع الأرض، وأخذ عنه أكابر الشيوخ منهم من كوّنوا طرقًا صوفية مستقلة نفع الله بها خلقًا لا يحصون، منهم الشيخ محمد بن على السنوسى، والشيخ محمد عثمان الميرغنى، والشيخ إبراهيم الرشيد، والشيخ محمد ظافر المدنى..

قال الكوهن فى طبقات الشاذلية:

"وكراماته تجل عن الحصر، ولا تحويها الأوراق، فهو بحر تلاطمت أمواجه، فعنه حدث ولا حرج، ولا يخفى على من يطالع أحزابه وكلامه عظيم قدره ومكانته. وله مؤلفات نفيسة تشهد بفضله، منها "العقد النفيس" و "رسالة القواعد"، "أحزابه وصلواته" رضى الله عنه. توفى -رحمه الله- ليلة السبت واحد وعشرين رجب سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف بصبيا، ومقامه يُزار، تقصده بلاد الإسلام قاطبة من كل ناحية، وتشد إليه الرحال من سائر الآفاق".

***

لم يلتق سيدى صالح الجعفرى بشيخه سيدى أحمد بن إدريس لقاء الأجسام، ولكن لقاء الأرواح، واستمد من مدده المتصل فى ولده سيدى عبد العالى الإدريسى ثم فى ابنه سيدى محمد الشريف الذى التقى به شيخنا فى صباه بمسجد دنقلا بالسودان كما رأينا سابقًا.

عن هذه العلاقة الروحية قال:

وشيخى هو ابن إدريس بحر موارد — جليسى أنيسى بل إمـــامى وقدوتى

فإن غـاب عن عينى فمـا غاب حبه — وما غاب عن روحى ولا عن بصيرتى

عليـه رضـــاء الله ثـم أمـانـه — وروح وريحـــان وأزكى تحيـة

وآل وأصحـــاب وكل مـــن انتمى — إلى ورده الســـامى لدى كل أمـــة

***

بيَّن الشيخ معالم الطريق الذى رسمه القطب الكبير سيدى أحمد بن إدريس والذى سوف يسير عليه ويلتزمه فيما بعد فقال:

"وقد كان شيخنا السيد أحمد بن إدريس -رضى الله عنه- طالبًا للعلم من صغره بعد أن حفظ القرآن، وكان يسافر إلى العلماء، ويتغرّب من أجل طلب العلم، فلما أراد الله أن يُظهره أظهره بالعلم فى عهد العلماء الأكابر".

وشرح الشيخ فى أجمل عبارة وأقربها كيف تتم الوراثة بين الأولياء والعارفين فقال:

"إذا سلكت طريق شيخ وكنت محبًا له انتقل حاله الذى كان فى الدنيا عليه إليك، بمعنى أن روحك تعمل مثل عمله، فإن كان عالما مالت إلى العلم، وإن كان فى خلوة مالت إلى الخلوة، وإن كان فى عزلة مالت إلى العزلة، وإن كان فى جذب مالت إلى الجذب، وإن كان فى

تلاوة قرآن وتدريس علم مالت الروح إلى ذلك حتى تكون فى الدنيا حياته كحياة شيخه، وهذا يسمى مقام الوراثة يتأتى بالمحبة وتلاوة الأوراد واقتفاء أثر الشيخ، وكل شىء كان الشيخ فى حياته لا يفعله فإنه اليوم فى برزخه لا يحبه ولا يحب فاعله، نعوذ بالله من ذلك".

فلقد تحقق لشيخنا الجعفرى مقام الوراثة من شيخه سيدى أحمد بن إدريس، وطريقته الجعفرية التى سعدت بها أرض مصر هى نهر متدفق من بحيرة ابن إدريس التى تفجرّت منها الأنهر فملأت البلاد خضرة وثمارًا.

لذلك يمكننا القول: بأن الطرق التى تفرعت عن القطب الكبير والموجودة إلى يومنا هذا هى – تقريبا: الطريقة السنوسية لمؤسسها سيدى محمد بن على السنوسى والطريقة الميرغنية لمؤسسها سيدى محمد عثمان الميرغنى والطريقة الرشيدية (وما تفرع عنها) لمؤسسها سيدى إبراهيم الرشيد، والطريقة المدنيه لمؤسسها سيدى محمد ظافر المدنى، والطريقة الأهدلية لمؤسسها سيدى سليمان الأهدل، والطريقة الجعفرية لمؤسسها سيدى صالح الجعفرى رضى الله عنهم أجمعين.

***

عندما بلغ الشيخ نبأ وفاة والده، كتب رسالة يخاطب بها روحه فى البرازخ، يبشر فيها أباه بأجمل البشريات، ويذكره بما ناله من أفضال بلقياه لبعض السادة الأدارسة، متخذًا من تلك المناسبة فرصة للثناء على مشايخه وتبيين فضائلهم، إنها رسالة كريمة جليلة، ما أجمل أن نقرأها معه فكم من الفوائد سوف نجدها فى طياتها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله، أيها السيد الوالد الحاج محمد صالح محمد الجعفرى السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فى عالم

برزخك، وفى روضتك، حيث تسمع وترى، وتبصر مالا نرى، أسلِّم عليك من قلب حزين، برحمة الله يود رؤيتك، ولكن الحكم لله، فإذا حجبت عن بصرى، فلم تحجب عن بصيرتى، وإذا غبت عن المكان، فلم تغب عن الجنان، قد منّ الله عليك بنعمة عظيمة، ووهبك حياة طيبة كريمة، واليوم أنت فى ضيافة الكريم الأكرم فى راحة تامة، ونعيم أعظم، وقد منّ الله عليك بشىء لم تنله بلسانك ولا بيديك، وهو اتصالك بمن أنت منهم، وهم أجدادك الجعافرة فهنيئا لك اليوم بمجاورتك لتلك الأرواح النقية الطاهرة، ولقد كنت تمشى على آثارهم فى حياتك، واليوم تفرح بلقائهم بعد مماتك، ولقد أخبرتنى أنك ووالدك كنتما تجلسان لسماع دروس بحر العلوم المتلاطمة أمواجها والشمس التى أضاءت قلوب الأحبة بسراجها، الزاهد التقى والشريف الولى السيد عبد المتعال الإدريسى -رضى الله عنه- فهنيئا ياوالدى، فلطالما تمتع نظرك بالنظر إلى ذلك الوجه البراق، وتشنَّف سمعك بذلك العلم الترياق، الذى تلقاه السيد عبد المتعال عن شيخه الفاضل المفضال، علامة الزمان، وفريد الأوان، ذى الأنوار الباهرة، والعلوم الظاهرة والعبادة والمجاهدات، والمواعظ والإرشادات، الحافظ المتقن لما يرويه، والفقيه المحقق لما يحكيه، الذى سار على قدم شيخه ولم يخالف قيد شعرة والذى أعطى شيخه حقه من الإجلال وعرف قدره، السيد محمد بن على السنوسى الإدريسى وهو قد تلقى عن شيخه: شيخ الشيوخ الأكابر، والإمام فى علمى الباطن والظاهر، شيخ الطريقة، وعالم الحقيقة، عالم الأسانيد ومفتاح

الاجتهاد والتقليد، عالم الفنون الغريبة، مظهر الأسرار العجيبة، تالى الأحاديث بالأسانيد والروايات، المؤيد من عند الله بالنصر والكرامات الذى علمه نافع لكل سامع، فمن ذاق منه قطرة صار وليا، والذى نظره ترياق للقلوب، فمن نظر إليه صار بإذن الله تقيًا، المجاهد الهمام، والعارف الإمام، السيد أحمد بن إدريس، ذو الأفعال الأحمدية، والأخلاق المرضية فهنيئًا لك يا والدى بهذا الاتصال، وبسماعك ونظرك للسيد عبد المتعال وبذلك تعتبر من الإخوان السنوسية، الذين بشّرهم ابن السنوسى بكل خير، ومن أعظم ما بشرهم به أن شيخه أخبره أن رسول الله ﷺ، أخبره أن من يأخذ طريقه يتولى تربية روحه النبى ﷺ ولذلك يقال لها: الطريقة المحمدية، وأن صاحبها يكون متمسكا غاية التمسك بمتابعته ﷺ.

فهنيئًا لك ياوالدى، لأنك صحبت البحر الذى تلاطمت أمواجه واتسعت فجاجه، قطب الأولياء، وإمام الأصفياء، الذى تحيرت أمام أحواله الأكابر، وظهرت كراماته لكل برٍّ وفاجر".

۞۞۞

سيدى محمد الشريف:

ابن سيدى عبد العالى بن سيدى أحمد بن إدريس، وقد مر بنا من قبل حديث الشيخ الجعفرى عنه، والآن يزيدنا به معرفة حين يقول:

"ومما منَّ الله به علىّ أن شيخى قطب أهل الوصال السيد محمد عبد العالى قد حضر درسى بالأزهر الشريف وأظهر كرامة وهى: كنت وأنا صغير إذا سلمت عليه بالبلد يقول: "أهلا شيخنا" ومرة

سلمت عليه ومعى مشايخى فسلم عليهم وعلىّ، فلما رجعنا قال لى أحد مشايخى: لماذا السيد يقول لك: أهلا شيخنا. ونحن مشايخك لا يقول لنا هذه الجملة؟ فقلت: الله أعلم.فلما أتيت الأزهر الشريف، وكان حضورى إلى الأزهر بأمر والده سيدى عبد العالى بطريق الإشارة، ومنه رضى الله تعالى عنهما بطريق العبارة، وبعد أن مكثت بالأزهر سبع سنوات حضر سيدى محمد الشريف بدرسى يوم الجمعة، وكنت أفسر سورة الكوثر والناس يزدحمون ما بين جالس وواقف، فلما حضر قال: من هذا؟ قالوا له: هذا الشيخ صالح. قال: صالح ابنى؟! صالح تلميذى؟! قالوا: نعم. فأخذه حال وفرح عظيم رضى الله تعالى عنه.

فلما انتهى الدرس قلت: يا أيها الإخوان إن شيخى قد حضر فقوموا جميعا وسلموا عليه. فلما سلمت عليه وقبلت يده تبسم وقال: "أهلا شيخنا" فتذكرت كلمته التى كان يقولها لى سابقا.

وقد استبشرت روحى بحضوره عند تفسيرى هذه السورة، وأخذت منها البشرى بكثرة الخير وكثرة الحج وقطع دابر أعدائى.

ولشيخى هذا أسرار وكرامات ونفحات وعجائب وغرائب، سره مكتوم وأمره معلوم، ظاهره باطن وباطنه ظاهر، له سيف قاطع ونور ساطع، قد ورث عن جده ووالده أحوالا، ونال من بركاتهما منالا، كان مرة يمشى خلف والده ببلدة دنقلا بالسودان، والناس يزدحمون عليه بالإقبال والإجلال فحدثته نفسه هل أنا إذا بلغت عمر والدى هذا يكون لى من الاحترام والإكرام ما حصل له؟ فالتفت إليه

والده سيدى عبد العالى رضى الله تعالى عنه وقال له: "وأكثر من هذا يا محمد" فكان كما قال، والحمد لله تعالى على كل حال، والصلاة والسلام على النبى وعلى جميع الأصحاب والآل.

وحكى عنه – أيضا – هذه الحكاية:

"كنت مرة جالسًا عنده بسفينة بمصر عند زيارته الأخيرة لها وكان مريضا، فقلت فى نفسى: ما هذا المرض؟ سبحان الله! فرفع رأسه وقال بصوت مرتفع: ابتلاء يا ابنى.

وهكذا كان نداؤه لى حتى فى البلد إما أن يقول: يا شيخنا، وإما أن يقول يا ابنى".

۞۞۞

علومـه وأعمالـه:

حصّل الشيخ صالح علومًا كثيرة، وتفوق فيها، وبثها فى دروسه أكثر مما بثها فى صفحات الكتب، لأنه مربٍّ اهتم بتربية الأرواح وإصلاح النفوس، ودعوة العباد إلى رب العباد.

ومع ذلك فقد جمع أصحابه ما خلف من تراث فى مكتبة كاملة اشتملت على الكثير الطيب مما ينفع الناس، منها:

١. ديوان الجعفرى، صدر منه اثنا عشر جزءًا.
٢. فتح وفيض وفضل من الله.
٣. المعانى الرقيقة على الدرر الدقيقة.
٤. أسرار الصيام.
٥. الإلهام النافع لكل قاصد.

٦. البردة الحسنية الحسينية.

٧. روضة القلوب والأرواح.

٨. جالبة الفرج.

٩. المدائح المقبولة.

١٠. السيرة النبوية المحمدية.

١١. الذخيرة المعجلة للأرواح المعطلة.

١٢. المنتقى النفيس من مناقب سيدى أحمد بن إدريس.

١٣. النفحات الكبرى.

١٤. أعطار أزهار أغصان حظيرة التقديس.

١٥. مفاتح كنوز السموات والأرض.

١٦. الصلوات الجعفرية.

١٧. منبر الأزهر يترجم عن نعمة الله على آل جعفر "خطب".

١٨. الحكم والفوائد الجعفرية.

١٩. كنز السعادة.

٢٠. مفيدة العوام.

٢١. دعوات الفرج السريع.

٢٢. مفرحة الفؤاد.

٢٣. مفرحة الأرواح.

٢٤. لآلىء البحار.

٢٥. الأربعين الجعفرية.

٢٦. القصيدة الرائية.

٢٧. القصدية التائية.

٢٨. نظم الآجرومية فى علم العربية.

٢٩. القصيدة الميسورة فى علم الميراث.

٣٠. جلت عظمتك.

٣١. رسالة فى الحج والعمرة.

٣٢. الأوراد الجعفرية.

٣٣. دروس الجمعة بالأزهر الشريف.

وله –أيضا– فضل فى نشر تراث شيخه سيدى أحمد بن إدريس وتحقيقه وطبعه والتعريف به وبطريقته فكان من ذلك:

١. لوامع البروق النورانية.

٢. كيمياء اليقين.

٣. شهد مشاهدة الأرواح التقية.

٤. نصر الله بالالهامات العلمية.

٥. الفيوضات الربانية.

٦. شرح الصدور بإذن اللطيف الخبير.

٧. رسالة القواعد.

٨. كنز السعادة.

٩. العقد النفيس.

۞۞۞

طريقة السلف:

كان -رضى الله عنه- فى حياته وأعماله - أشبه الناس بسلفنا الصالح، ونهج نهجهم -أيضا- فى نظم المسائل العلمية فى أبيات من الشعر حتى يسهل على الطلاب حفظها، وهى الطريقة التى تدل على تبحره فى العلوم وتمكنه من أداة الشعر، من أمثلة ذلك ما قاله فى شرح حديث من أحاديث النبى ﷺ فى "المنتقى النفيس" حيث قال:

"قال عليه الصلاة والسلام: "إنَّ الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء".

مروى عن أوس بن أوس من حديث طويل أخرجه أبو داود، والإمام أحمد والنسائى، وابن ماجه، والدارمى، والبيهقى فى كتاب الدعوات الكبير، وابن خزيمة، وابن حبَّان فى صحيحه، والطبرانى فى الكبير، وسعيد بن منصور فى سننه، وابن أبى شيبة والحاكم وصححه، وأيضًا صححه النووى – رحمهم الله أجمعين.

وقد نظمت بفضل ربى المخرّجين لهذا الحديث لكثرتهم ليسهل حفظهم:

تحريم أكل الأرض جسما للنبى قد قاله المختار خيرُ العـــرب

أخرجه عشـــر كذاك اثنـــان من سادة الحديث والإتقـــانِ

وهم إمامنا أحمد والنســائى كذاك ابن حبان بلا افتـــراءِ

كذا أبو داود نعـــم المرتقى والحاكم المشهور ثم البيهقـــى

والطبـــرانى لدى الكبيـــر ثم ابن ماجه عالم

نحـــرير

وابن خزيمـــة كذا سعيـــد فى سنـــن أقوالهـــا تفيـــد

وابن أبى شيبة ثم الدارمى فاحفظ حديث الفضل للأكارم

***

ومثال ثان الأرجوزة التى نظمها فى علم التوحيد وأسماها "مفيدة العوام" وقال فى شأنها:

"قال العلماء إن علم التوحيد واجب عينى على كل فرد: رجل وامرأة، ويكون الإنسان بتركه عاصيا، وقد وفقنى الله تعالى إلى منظومة صغيرة جامعة لمسائل التوحيد، فعلى كل مريد أن يجتهد فى حفظها.

ويزيدنا الشيخ بيانا بأهمية هذا العلم، وسبب نظمه لقواعده فى قصيدة فيقول:

"ولما كان الشيطان يوسوس بأشياء لا يقبلها الشرع لمن كمل إيمانه أردت بقراءة علم التوحيد أن يستطيع المريد أن يدفع شبه الشيطان ووساوسه، فهو علم نافع، وشيح للوساوس قاطع، وبه يكون الثبات فى الحياة الدنيا والآخرة".

تنتظم القصيدة ثمانية وخمسين بيتًا نقلتها بكاملها لما أرجوه منها من نفع فى زماننا الذى تشوشت فيه القلوب بانتشار عقائد المشبهة والمجسمة من خلعوا على الخالق صفات المخلوق، والذين ينقصون من قدر النبى ﷺ ويبغضون أهل البيت وأولياء الله الصالحين. ولقد اهتم أئمة أهل السنة والجماعة عبر العصور ببيان عقيدة أهل السنة لأنهم قالوا: "اعرف الحق تعرف رجاله". فليس كل داع يجب اتباعه. قد يكون الداعى

من أطلق الناس لسانا، وأقواهم حجة وأكثرهم نشاطًا فى نشر دعوته وأعظمهم قدرة على اجتذاب الناس، ولكنه يقودهم إلى النار لأنه يدعوهم إلى غير ما بعث به نبينا محمد ﷺ.

وشيخنا الإمام الجعفرى يبين فى هذه المنظومة ما يجب فى حق الله، وما يستحيل فى حقه –تعالى– وكذلك ما يجب وما يستحيل وما يجوز فى حق رسله عليهم الصلاة والسلام – حتى يكون المسلم على بينة من أمره فى هذه المسائل الشائكة الخطيرة.

مفيدة العوام

يقول راجى رحمة الرب الجعفرى صالح نسل العلى الولى

الجعفرى ساكن معلم للعلم الجنان والقرآن

الحمد لله على ننجو به من ربقة التوحيد التردِيد

ثم الصلاة بالسلام على النبى المصطفى السرمدى محمد

وآله أهل التقى ألقى بها النجاة يوم والطهر الحشر

وبعد فالعلم بذا فرضٌ محتمٌ على التوحيد العبيد

وهذه أرجوزة لكنها فى علمها صغيرة كبيرة

سميتهـــا مفيـــدة أرجو بها موائد العـــوام الإكـــــرام

وأسأل الله الكريم قبولها فى البدو البـــارى والأمصـــار

ونفع حـــافظ لها وافتح لهم خزائن وقـــارى الأســـرار

أرجو بها القبول واليسر والتوفيق والسعـــادة والإفـــادة

ودفـــع حاســد وما يريد يا حـى يا قيـــوم يا مـريد

قد أوجب الله على الإنسان معرفـة المهيمـــن الديـــان

فواجب معرفة لما يجـــب فى حقه والمستحيل فاحتسب

وما يجـــوز إن عرفت فالزم ومثل ذا لرســـله فحتـــم

فواجب فى حقـــه كل كمال قد أتى تعـالى إجمـــالا

ويستحيل ضـــده من المصير راجـــع عليـــه إليـــه

وواجب فى حقه جـــل الإله الواحـد

الوجـــود المعبـــود

والقـــدم البقـــاء مـخـالـف لخلقـــــه

للقـــــدير الكـثيـــر

قيـامـه بنفســـــه أوجـــب له كذاك

العليـــــة وحـــدانيـة

وقـــــدرة إرادة كـذا الحيـــاة قد أتـانا

والعـلـــم العلـــم

سـمـــــع له سبحـــانه مقـــدس

وبصـــــر كـلام عـــلام

وهذه الصفات سبـع قد وبالمعانى عندهم قد

أتت علمـــت

ومعنـــويـــة لـه سبع صفات فاحذر

تعـــالى الجـــدالا

ككـونه جـل عن أى قـادرًا فى غايـــة

التشبيـــه التـنزيه

جل المريد عالم حى سمـــيع خـــالق

الأشيـــــاء الأفياء

وهو البصير فى دجى متكلم وصـــادق

الظلماء الأنبـــاء

ويستحيل ضد ذى على الجليل منـــزل

الصفات الآيـــات

العدم الحدوث مماثل للخلق لا والفناء يجاء

كذا احتياجه إلى كذا تعدد له سواه يأباه

فى الذات والصفات جل إله العرش عن والأفعال مثال

عجز كراهة كذاك وموته وصمم ذا الجهل نقل

كذا العمى وبكم عن الإله وهو منفى العلى

وفعل ممكن عليه أو تركه ومن دراه جازا فازا

فواجب فى حق رسل الصدق فى الأقوال البارى والأخبار

أمانة تبليغهم والكل معصوم له فطانه صيانه

ويستحيل كذب كذاك كتمان فخذ خيانه بيانه

كتمانهم شيئا من كذا بلادة لدى الأحكام الأحلام

وجائز فى حقهم والأكل والشراب عند

كالنـــــــوم القـــــوم

وهذه الخمسون واجـب على كل الأنـــــام فهمـــها على الـولا

تنبيك عنها كلمة التوحيـــــد فلا تكن فى الأمر ذا تـرديـــــد

يا سعد من بذكرها يـــــوالى يحيى بها الأيـــــام و الليـــالى

فذا موفق كـذا سعيـــــــد قد جـاءه الفتـــوح والتأييـــــد

لا سيمـــا للذكر بالاثنـــــين فـــلازم الذكـــر بكل أيـــن

تقـــــول لا إلـــــه إلا الله محمـــــد أرســـله الإلـــه

فالمصطفى وسيلـة القبـــــول أكرم به من صـــادق رســـــول

بغيره إيمـــاننا لا يقبـــــل ومن قلاه كافـــــر مجنـــــدل

والحمـــــد لله على التمـــام ثم صـــــلاة الله بالســـــلام

على نبى جـــاء بالأحكـــام ورســـل أفاضـــــل كـــــرام

ما الجعفرى سأل فتح الهدى ميسرًا
المجيبا قريبا
كذاك للأصحاب من خالق مدبر
والأحباب وهاب
فإن أردت حفظها بأحمد نبينا
توسل المفضل
عساك أن تحفظ ما من درر التوحيد قد
نظمته بينته
بنوره تهدى إلى فإنه وسيلة
الرشاد العباد
وبالصلاة دائما إن شاء ربى واصلاً
عليه لديه
وتم نظمها ببعض بالأزهر الشريف يوم
ليله الجمعة
سألت مولاى لكل لنظمها سعادة
قارى الأخيار
كذاك ختم الخير من غير تفريق ولا
للجميع تضييع
أبياتها خمسون مع من فضل ربى نظمها أتى
ثمانيه ليه

❋❋❋

ومثال ثالث وضعه لقواعد النحو فى قصيدة وهى المعروفة "بنظم الأجرومية فى علم العربية" التى يقول فى مطلعها:

يقـــــول راجى رحمـــــة أى صالح المشـــــــهور العلى بالمدنىّ

الحمد لله وصـــلى على نبىٍّ خـــافض البـــــارى الكفـــــــارِ

وبعد فالنحو هو لكل عـــــــالم له السنـــــــانُ بيـــــــــانُ

وهذه أرجـــــوزة قد وضحت لنحـونا مباركـــــة مســـــالكه

سميتها مفيدة جامعة لأوضـــح الإخـــــوان المعـــــانى

۞۞۞

الزاهد

لو حظيت بزيارة الشيخ فى مقامه المنيف بمسجده بالدراسة، لوجدت غرفة صغيرة ملحقة بالغرفة التى بها قبره. فى هذه الغرفة ترى بعض آثار الشيخ: مسبحته وعمامته وملابسه وحذاءه وعكازه ودورق الوضوء وسجادة الصلاة وزجاجات عطر وسرير حديدى غاية فى التواضع.. آثار قليلة فقيرة تنبى عن صاحبها؛ هذا ما خلف هذا الرجل الكبير والإمام العظيم غير مكتبته ومؤلفاته.. هذا ما ترك من الدنيا.. عبرة لطالبيها واللاهثين وراء سرابها.

نعم، لقد كان -رضى الله عنه- زاهدًا فى الدنيا فعلاً لا قولاً.. نفض منها قلبه كما

ينفض أحدنا التراب عن ثوبه. وفى ذلك يقول:

"ولقد نفضنا قلبنا منها نفض القديد، ذهبها عندى كالحديد إن شاء الله تعالى. لا أغتر بها كمن غرّتهم، ولا اشتغل بها كمن شغلتهم، فما سُر ظهر لمن إليها نظر، ولا كشف الحجب لمن طلب فيها الرتب".

يقول الدكتور محمد عبد الدايم الجندى مؤلف كتاب "الشيخ صالح الجعفرى حياته وجهوده فى الحياة الروحية".

"إن الشيخ عاش فى غرفة خشبية ضيقة برواق المغاربة بالجامع الأزهر الشريف إذ قضى به خمسين عامًا من عمره، وكان رغم مكانته العلمية يحرصُ على مشاركة الخدم بالجامع الأزهر الشريف فى أعمال النظافة ويحيا حياة البساطة والشظف، فلا يزيد طعامه المعتاد على قطعة من الجبن وكسرة من الخبز".

ويقول نقلاً عن الدكتور محمد رجب البيومى فى مقال له عن الشيخ بمجلة الأزهر سنة ١٩٧٩:

"كان للشيخ -الجعفرى- أتباع من كبار الموسرين يعرضون عليه الإقامة فى الشقق الفاخرة، ويرون فى تنوع مجرى حياته وسيلة إلى استبقاء صحته، ولكنه كان يتخذ من هذا العرض الودود سببا إلى موعظة حسنة فى الدرس إذ يشرح حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد راودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم، ثم ينتقل إلى سير الصحابة الأعلام.. مرددًا قول الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه:

يا دنيا غرى غيرى إلىَّ تعرضت؟ أم إلىَّ تشوفت؟ هيهات

هيهات! قد باينتك ثلاثًا، لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وأثرك حقير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق.

وكان أتباعه من عشرات الموسرين فى شتى ممالك الإسلام يرسلون إليه الهدايا الثمينة فى كل موسم، فكان يدفع بها إلى أحد معارفه من كبار التجار بالقاهرة، ويطلب منه أن يشتريها بثمنها الحقيقى، وأن يستبدل به أقمشة متواضعة متينة، ويعلمه عدد الأمتار، فإذا تم ذلك أخذ الشيخ يستعرض المحتاجين من روَّاد مدرسته وعشاق موعظته ليعطى كلا منهم كوبونًا ممهورا باسمه، وبه مبلغ من الأمتار يحدده الشيخ وفق ما يتلقاه من إجابة مريده الفقير عن أسرته وصفتهم من الأنوثة والذكورة، ثم يبعث به إلى صديقه التاجر ليأخذ ما يحتاج من الرصيد المدَّخر".

***

لم يكتف الشيخ بإبراز قيمة الزهد فى حياته وغدوه ورواحه بين مريديه وعامة الناس، ولكنه نبه إليه وحرض عليه فى كثير من قصائده مثل قوله:

ازهد لكل مفارق من قبـــل أن تلقاه فارق فالبقا للباقى

لاسيما الدنيا كظـــل يا فـــتى لاسيما الدنيا كظـــل يا فـــتى تلقاه قد ولَّى بغير تلاقى

كم من غرور قد رآها جنـــة فأرته ذل الهُون بالإمـلاق

وترى القنوع بها أراح فـــؤاده لما اكتفى بموائد الرزاق

فأزهد تجد قلبا لديك هذا النعيم لكل قلب راق

۞۞۞

مقامات الطالبين

تكلم العارفون عن منازل السالكين إلى الله، المتوجهين إليه كالزهد والورع واليقين وهكذا.. ذكر الإمام القشيرى فى "الرسالة" نحوا من أربعين منزلاً ومقامًا، وربما زاد عددها عن ذلك أو نقص عند غيره من العارفين، ولكنهم جميعا اتفقوا على أن أولها جميعًا هو التوبة.

فالتوبة -كما قال الإمام القشيرى- هى أول منزلة من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين.

وشيخنا الجعفرى تناول هذه المقامات كلها تقريبا.. تكلم عنها فى دروسه وخطبه، وكتب عنها فى كتاباته وذكرها فى قصائده، فهو شيخ التربية الذى ربى السالكين، والداعى إلى الله الذى انفق حياته فى دلالة الناس والأخذ بأيديهم إلى ما يقربهم إليه.

***

وها هو ذا حديثه عن التوبة نقلاً عن كتاب الدكتور الجندى باختصار وتصرف وتقديم وتأخير:

قال الشيخ:

تُـب إن أردْت محبـــــة فالله يغفرُ ســـــائر الأوزارِ الغفـار

ماخاب من قَصَد المُهيمــن ينجو بتوبته من تائبًا الأغيـــــارِ

لا يستقيمُ القلبُ فى أعمـــــاله حتى يتوب لواحدٍ قهَـــــارِ

يرغبنا فى التوبة قبل أن يبين أهم شروطها فيقول:

"وقد أمر الله تعالى جميع المسلمين بالتوبة ووعدهم بالفلاح (إشارة لقوله تعالى: {وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون} "النور:٣١" فبادِرْ بالمتاب قبل المبادرة عليك بالتراب، فإنك لا تدرى ماذا يكون بعد لحظة، أحياة أم المنون؟ فكم من صحيح لحينه رحل، وكم من مريض يمشى إلى الموت على مهل، وقلت فى ذلك شعرا:

تهيأ للممـــــات فلست بأنفاس المات متى تكونُ تدرى

فتب لله توبـــة ذى وهوِّن كل ما تلقى يهـــونُ رجـــاء

فمن عرف الحقيقة ليس يخشى سوى المولى ويُفرحه المنونُ

إذا ما تـــــاب كان له مُحبًا ورؤياه تقرّ بها العيـــــونُ

***

ويحدثنا الشيخ عن التائبين حديثا مشوقًا يجعلنا نتمنى أن ننضم إلى ركب التائبين: اللهم اجعلنا منهم بجودك يا كريم. يقول رضى الله عنه:

"الدنيا لديهم صاغرة، والآخرة لديهم ماثلة حاضرة، شربوا على ذكر ربهم صافى الشراب، فصارت الدنيا تمر أمامهم مَرّ السحاب. رأوها فعرفوها زائلة، فعرفتهم فأقبلت عليهم بعد إعراضهم عنها فخدمتهم، فهى تتشرف بخدمتهم إذا هُم رأوا العار فى خدمتها، وهى

تفرُّ إليهم لعُلوِّ قدرهم إذا هم فروا منها لخسّتها، فما سبحت أرواحهم إلا بأجنحة أعمالهم، وما نشطت أفكارهم إلا بِقلّة آمالهم، فلا تحيّر روحك بين زائلين: جسدك وأملك، وانهض بكليتك إلى حظيرة قدسيتك وعملك، فما أنت إلا غريب طيار، مالك فى هذه الدنيا من قرار، أنسيت يوم أن طرت من السماء إلى الأرض، لإقامة السنة وأداء الفرض إلى أجل مسمى، ثم تطير كما كنت، فهل نسيت أنك طائر، أم إلى أرض جسمك أخلدت؟ وهل يعيش طير بغير طيران؟ أم يتنعم روح علوى بغير قرآن؟ أم هل أنستك الغفلةُ السفرة الكرام البررة؟ فكيف ركنت إلى الوحوش الضارية، والبلاقع الخاوية، وكيف استبدلت أصوات القرآن العلوية بمنكرات الأصوات السفلية، ما بين ناهق ونابح وسخاب ونائح، وطعان وكاشح. أفق من غفلتك إلى يقظتك، ومن رقدتك إلى جنتك فقد آن أوان رحيلك".

***

أهم ما يركز عليه العارفون فى التوبة هو سرعة إتيانها، فالتسويف آفتها الكبرى التى غلت أيدينا، لذلك قال سهل بن عبد الله التسترى: التوبة ترك التسويف. وقال ذو النون المصرى: الاستغفار من غير إقلاع توبة الكاذبين.

لذلك يحض الإمام الجعفرى على المسارعة فيها "فإذا ما سارع السالك بالتوبة، وفرّ من نفسه إلى ربه، وجدها (أى التوبة) محلاً لرقى روحه وقربه من ربه ومحبته"..

قال:

"فبادر بإعطاء الحقوق لأصحابها، وبإرضاء الخصماء قبل ذهابها، وبالإخلاص قبل طلوع الروح وإزهاقتها، إياك أن تؤخر التوبة، فقد

اقتربت الساعة وانشق القمر، أتريد الساعة، فالساعة أدهى وأمر، أم تريد أن تلقى مولاك وأنت مقبل على مانهاك"؟.

اللهم لا.

***

احذر هواك فإنه يهـــــوى بمن مَلَك الهوى أعناقهم فى الهــاويـة

إن القوى هو الذى غَلبَ الهوى ليس الذى غلب الأسود الضارية

كم من مُريد قد أضرَّ به الهوى لـو كان يعـقـــــل ما تمنى الفانيـة

۞۞۞

طريقتــه:

هى طريقة شيخه القطب الكبير سيدى أحمد بن إدريس، وهى تجريد القلب لله تبارك وتعالى، وتقوم على الكتاب والسنة، "وقد مكث سيدى أحمد عدة سنين لا شغل له إلا تلاوة كتاب الله والتعرّض لنفحات أسرار علومه، ولطائف رقائقه وفهومه حتى منح الله به ما منح، وفتح بما فتح".

بين الشيخ صالح معالم هذا الطريق قائلا فى "الإلهام النافع":

"طريقنا هذا طريق الله تعالى، المجرّد عن شوائب الدنيا وكدوراتها، ليس لنا رغبة إلا التوجه إلى الحق سبحانه وتعالى، قاطعين جميع العوائق والعلائق والأغيار النفسية، متخلقين بالكتاب والسنة فى جميع أحوالنا وتطوراتنا وحركاتنا وسكناتنا، راضين به عن غيره،

عاكفين على بساط أنس محبته فى الدنيا قبل الآخرة".

من أبرز سمات هذه الطريقة كثرة الصلاة على النبى ﷺ حتى تتأكد محبته فى القلب، ويزداد المريد بذلك قربًا منه ﷺ وهو الطريق الموصل إلى الاستقامة على طريق النبى ﷺ واتباع سنته. لذلك كان السيد أحمد بن إدريس يقول: الاستقامة عندنا هى غاية الكرامة.

وهكذا يبين شيخنا الجعفرى سند طريقته فيقول:

أنا الشيخ عن شيخى تلقَّيْتُ وِرْدَها وشيخى هو ابنُ ادريس بحر الحقيقة

ويقول أيضا:

"قد أجاد شيخنا "الشفا" القطب النفيس مولانا السيد أحمد بن إدريس رضى الله عنه حينما وكلنا إلى رسول الله ﷺ يتولى تربيتنا، وقد شاهد كثير من إخواننا ذلك إلى يومنا هذا، فاختص الله الآخذين لطريقه المحمدى بالتربية المحمدية.. فامتاز هذا الطريق فى أوراده بهذه الميزات المميزات له، وأن صاحبه كانت له القدم الراسخة فى المتابعة المحمدية الظاهرة فى جميع أحواله، فكانت الرابطة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – رابطة قوية متينة، وقالوا إن كل مريد يرث من مقام شيخه وحاله على قدر اجتهاده واستعداده ووثوق الشيخ به".

وهذا نفسه ما حدث للشيخ فتحقق له الفتح، ونال الاتصال بسيد الكائنات ﷺ، ونال به ما نال من خيرات لا يعلمها إلا الله. أشار بنفسه إلى بعض ذلك فى أبيات تتألق فرحة واستبشارا:

إنِّى رجوتُكَ أنْ أكونَ شيخ الطَّريق مُلبيًا لِنـــدائـهِ
كأحمـــــدٍ
اسْلُكْ بُنَيَّ طريقَنا هـذا النبى مِنه الطريق وأنتَ تحت لوائهِ
يا سَعْد أولادى لقد بَلَغوا بنبِيِّنـــا وبآلهِ ودُعـــــائِـهِ
المُنى
أُذكر طريقى لا تكن السِّرِّ كلُّ السرِّ فى إمـــلائـهِ
مُتغـــافِلاً
أَمْلَى علىَّ المصطـــفى أيْقِنْ بهذا النّور من أضـوائـهِ
أورادَهُ
يا داخلاً هذا الطّريق لك المُنَى دُنْيا وأخرى فى بديع بَهائـــهِ

***

لقد حفل ديوان الإمام الجعفرى بالقصائد التى ترسم معالم الطريق حتى لا ينحرف عنها المريد، إذ أن هذه القصائد نفسها مما تتردد دائما فى مجلس المديح وحضرة الذكر، من ذلك قوله:

ما عندنا لـهـــوٌ ولا ولا خُرافاتٌ ولا ظُهُـــورُ
غُـــــرورُ
بَلْ عندنا الله هـو الواحدُ الموجودُ والمعبودُ
المقصـــــودُ
فى حضرةِ المختارِ خيرِ الخلقِ مُسْتغرقًا مشاهدًا للحـقِّ
فشَهْدُنا شهـــــدٌ عظيم المِنَّـةْ فى سُور القـرآنِ ثم السُّنَّـةْ

ثم نظم قصيدة واحدة جمعت مبادئ الطريقة، وعرَّفت بها، وبينت معالمها حتى

تكون مرجعًا سهلاً لكل مريد، وجعل اسمها "الذخيرة" وهى فعلاً ذخيرة لطالب الوصول، وها هى ذى:

الذخيرة

شرعت ببسم الله نظم ذخـــــيرتى وأثنى بحمـــــد الله بارى الخليقـــة

صلاة على المبعوث للناس رحمـــــة وآلٍ وأصحاب نجـــوم الهـــداية

طريقى طريق القـــوم أهـــل الحقيقـــة فعجِّلْ إليـــــه وادخـــلنَّ بنيَّـــــةِ

وداوم على الأوراد والـــذكر دائمـــا بحضرة إخـــوان أقاموا لحضـــــرة

ففى الحضرة الأنوار والســـرّ يا فتى بمدح رســـول الله خير البريّـــــة

وأفضل ذكر الله تتـــــلو كتـــــابـــه وتسمعُ درس العـــلم يأتى بحكمـــة

فشمِّر أخا التوفيق وادْخُل لحضـــــرة لتتلو مع الإخـــوان كنز السعـــــادة

ففيه من الأسرار ما جلَّ حصـــــرهُ ودعواتـــه كنزٌ لأهـــل الطريقـــة

وهذا طريقٌ جـــامع الخير كلـــــه بدنيا وأخـــرى فى جنـــانٍ عليَّةِ

هناءٌ ويُسْـــرٌ والغـــنى وعلـم وإرشـــــادٌ وحـبٌّ وصيانـــــة بهيبـــة

وستر وتوفيـــق وبر وحجٌّ كثيرٌ والطـــواف ورحمـــــة بكعبـــة

وإن كنـــت ذا أرض فبـــورك وإن كنت ذا تجـْرٍ فربحُ نَبْتُـــهَا التجـــارةِ

وإن كنت ذا غـــزْل فغـــزلك وإن كنت ذا صُنْعٍ نعمت نافـعٌ بصنعـــة

طريقى طريـق الله فيـــــه أناالشيخ وابن إدريس شيخ منـــافعٌ العنـــاية

أناالشيخ عن شيخى تلقيـــتُ وشيخى هو ابن إدريس بحر وِرْدَهـا الحقيـقة

آتـانى رســـــول الله بالـورد ففى النوم أحيانًا وفى حال منحـــة يقظـــةٍ

فبُعدك عنّـــــا حيث ما كنت مكائد للشيطـــان فاحْـــذر غفـلة لغفلـةِ

وذكرك للرحمـــــن نـــورٌ ظلامٌ فلا تركن إلى ســـوء وتركـــه ظلمـــــةِ

هـــواتفُ شيطـــان تـــوالت بذكـــر لرب العرش ذكرًا فرُدَّها بهمـــــةِ

فما خـــــاب ذو ذكرٍ لربٍ يردُّ شياطين النفـــوس

جـــــلالُه بسُـــــرْعةِ

فلا تنـــس من لـولاهُ ما كنـــــت ولا تنس قرب الله فى كل كائنا لمحـــــةِ

فإن كنت مقــداماً فهذا مجـــال تقـــدم فى الميـــدان بين من الأحبـــــةِ

فلا تجعل الشيطـــان يأتى إليـــك وقد نوديت هيَّا موســـوسًا لحضـــرةِ

أيحسن منك السوء إن كنت وقد رشحوك القـوم أهـــل عـــاقلاً الحقيقـــةِ

وبايعـــــت شيخًا للعـــلوم له قـــدم التحقيـــق بين محققًا البريَّـــةِ

عليك بحفـــــظٍ للكتـــاب أنيسٌ لأهـــل الذكر فى كل فإنـــه ليـــلةِ

وتتلوه جـــوف الليل والليلُ لتسبح فى الأنوار حال مظـــلمٌ التـــلاوةِ

طريقى هو القـــرآن والعـلم ومدح رسول الله ماحـى والتُّقى الضـــلالةِ

وحال تلاميـــــذى إذا ما لدى حضرة القـــرآن كُلّ رأيتهم عَشِيَّـــةِ

وبعد غروب الشمـــس يتلون وبعد صلاة الصبـح خير وردهم التـــلاوةِ

صـــــــلاة وتسليمٌ من الله على خير مبعـــــــوث إلى خير أمـةِ دائـــــمٌ

تقبل دعـــــاء الجعفـــــــرى بأســـــرار علمٍ من علوم الحقيقـــة ومُـدَّهُ

۞۞۞

فائدة جعفرية

يقول الشيخ فى "الإلهام النافع":

إذا عصتك نفسك وخالَفَت وعن الفضائل تخلّفت، وعن دعوة الحق تولّت، وصارت جموحة الأخلاق، منفرة للرفاق، أجدبت أرض قلبها بنسيانها لذكر ربها، وتسربلت بالخمول والكسل، وصارت حليفة البطالة والفشل.

فعليك بالإكثار من الصلاة على نبى التوبة ﷺ، لأنك إذا أكثرت من الصلاة والسلام عليه وصلك، وإذا وصلك تاب الله عليك ورحمك.

وهذا أقرب سبل الخير المنقذة لك، واجعله المرئى لمرآة قلبك، متوجها به ﷺ إلى ربك. فهو إمام روحك المبين: {وما هو على الغيب بضنين} "التكوير: ٢٤"، سراج أفق الألوهية لمن أراد أن يسير فى ضوئه إلى حضرة الألوهية، ومعدن الأسرار الربانية، لمن أراد أن يطلع على الأسرار الخفية، لوح علم الله المخزون لمن أراد أن يطلع على الجوهر المكنون، تبصرة المستبصر، وتذكرة المستذكر، ومفتاح فتح الفاتحين، وقدوة الراسخين المرشدين.

فهو ﷺ الذات المكملة النورانية، بمشاهدته يحصل الكمال والنور، ويتفاوت الكمال والنور تفاوتا عظيما على حسب مراتب القرب منه ﷺ ، فجرد نفسك لنفائس قدسك، لتحظى بجنة قربك، وتأدب بآداب القوم، خشية العتاب واللوم، لكى حبل وصلك يقوى. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ "الحجرات:٣".

ولا تحد النظر إليه إذا رزقت الجلوس بين يديه:

كأنه وهو فرد من جلالته فى عسكر حين تلقاه وفى حشم

وشطرت هذا البيت الذى للشيخ البوصيرى رحمه الله:

كأنه وهو فرد من جلالته فى هيبة الأسد إذ كانت لدى أجم

كأنه حين يمشى من مهابته فى عسكر حين تلقاه وفى حشم

وقلت أيضا:

انظر إلى جبريل حين تأخرا والمصطفى قد سار فى أنواره

جبريل يخشى الاحتراق وأحمد يقوى بحول الله فى أنواره

نور الجلال له الجلال وبعد ذا كشف الحجاب ونال من أسراره

نور ولكن ليس أهل الشهود كذاك فى أعطاره

كالأنـــــــــوار يا

أمـــــر غريب للقـريب لاحت له الأنـــوار فى بقـــربه أذكـــاره

اشرب أخى شراب أرباب واترك طريد النفس فى إنكـــــاره الصفا

أول ما خلق الله نور نبيك ﷺ فنبّأه وعلّمه وجمّله وكمّله وقدّمه وكرّمه وقرّبه ورفعه وآواه وقرن اسمه باسمه.

۞۞۞

أسلوبه وحاله فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

قال العارفون إن الله سبحانه وتعالى إذا تجلى على وليه بصفة الجمال كان الولى هينا لينا رفيقًا يعذر الناس ويبحث عن محاسنهم، وهكذا كان شيخنا الجعفرى، ولا يتناقض هذا طرفة عين مع واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأولياء الله أول القائمين به والمسارعين إليه والقادرين على القيام به على أكمل وجه.

هم حراس الدين، الذائدون عن حياضه، لا يسكتون عن منكر قط، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم.

۞۞۞

مع الوهابية:

من أكبر المنكر فى هذا القرن الدعوة الوهابية التى روجت بين عوام المسلمين أن التوسل بالنبى ﷺ شرك وكذا بالصالحين وزيارة قبورهم، وأعملوا جهودهم فى تنقيص قدر النبى ﷺ الذى رفعه ربه، وحكموا بالشرك على من يقرأ كتب الصلاة عليه ﷺ مثل

"دلائل الخيرات" وقصيدة "البردة المباركة" للبوصيرى.. وقد انتشرت هذه الفتنة حتى وصلت للقرى والنجوع، وأصبح أهل هذه الفرقة وأشياعها يتهمون المسلمين فى أعز ما يملكون وهو الإسلام واصفين من يزور أهل البيت أو أولياء الله بأنه قبورى وأنه يعبد القبور ويحاولون إثناء الناس عن زيارة حبيب رب العالمين!! وكم من المعارك خاضوها ليوقفوا الصلاة على النبى ﷺ بعد الأذان وكذا الصلاة على النبى فى تكبيرات العيدين وغير ذلك مما لهم من الشنائع والمنكرات.

مصيبتهم الكبرى أنهم تنصلوا من سلف الأمة، مع أنهم يُسمّون أنفسهم "بالسلفيين"، ونشروا بين العوام أن كل مسلم يجتهد فى الدين، وفتحوا أبواب فتن تُرى آثارها فى واقع الأمة المعاصر.

لذلك يحذر شيخنا الجعفرى منهم ومن صحبتهم أشد التحذير، فيقول فى "الإلهام النافع":

"ومن الوبال على المريد انتماؤه للمدَّعين ممن يدّعون الاجتهاد، وينكرون على الأئمة رضوان الله تعالى عليهم، وهم لا يعرفون القرآن ولا الحديث ولا علم الأصول، فهم فتنة بين المسلمين، وهم أضر على المريد السالك من المعاصى.

ومن العجب أن حالهم لا يعجب أحدًا إلا الجهال، وشَرَكهم لا يصطاد إلا الجهال كما قال الشاعر: إن الطيور على أشكالها تقع.

ومن علاماتهم غبرة على وجوههم، وأنهم من أهل الوجهين، وبخلهم إلا على من يوافق قولهم، وكثرة كلامهم بغير ذكر الله تعالى، وإظهار الحماقة عند الحديث معهم، واحتقارهم لمن دونهم ولو كان أعلم وأشرف، وكثرة غفلتهم عن ذكر الله تعالى، وكثرة الرياء،

واعتناؤهم بكل ما يراه الناس، وبغضهم للصوفية، وإنكارهم عليهم، وإنكار كرامات الأولياء، واتخاذهم قولهم مهنة للعيش، وعجزهم عند المناظرة مع أى عالم، واحتقار جميع المسلمين وتضليلهم وتسفيه آرائهم.

***

قال شيخنا فى إحدى القصائد الزينبيات:

ياقومُ مالى قَد رأيتُ النَّاسَ فى شىءٍ مُشينْ
الـ
يَرْمُوننا بالشِّركِ بكُفْرِ الصَّريحِ مُبيِّنينْ
والـ
أنَّ الزيارةَ فى شَأْنِ قومٍ مُشْرِكينْ
بِدْعةٌ
وهُمُ إلى الكُفّارِ يًا كل حينٍ زايرينْ
سَعْ
وإلى الأجانب فى د سَعَوْا لأجْلِ الدِّرْهِمِينْ
البلا
وإلى النبِّى فما ولمنْ سَعَى مُتعرِّضينْ
سَعَوْا

وقال فى "روضة القلوب والأرواح":

وكَمْ قومٍ لهم بُغْضٌ أضَرَّ بهِم وكانوا مُبْغَضِينا
شديدٌ

ومَنْ يُنكر على الأشرافِ فَضْلاً تَرى أعلامَهُ فى الـهـالِكِينا

شَقِيٌّ مـــن تولَّى عن دِيـــــارٍ تدورُ بِها قلوبُ العاشِقِـــينا

ومَن زَاروا الكِرامَ فَهُم كِـــرامٌ ومَن زَاروا الأَسَافِلَ سافِلينا

وكَمْ زاروا دِيارَ الكُفـرِ جَهْرًا أيكفـــرُ مَن يزورُ لآلِ طَـــهَ و ما زَاروا بِقاعَ الطَّاهِـرينا ويُسلِمُ من يزُور المُشْـرِكينا

تعجَّبْ مِن ضلالٍ فى عُقـــولٍ وحَاذِر مِن دُعـاةِ المُنْكِـرينا

وكُنْ رَجُلَ الثَّباتِ ولا تُمـــارى لِمَنْ بالرَّيْبِ صارُوا مُمْتـــرينا

***

لكن الروح المهيمن على كثير من قصائده – ولم أطلع منها إلا على القليل – روح فرحة مستبشرة، هائمة فى بحار المحبة التى لا تُدركُ لها شطآن، حب الله ورسوله وآل بيته وصحابته وأولياء الله الصالحين، المحبة التى تأكدت وزادت وربت بالمشاهدة أحيانا كثيرة كما أخبر الشيخ بنفسه فى مواضع عديدة، وكما روى أصحابه ومريدوه من كراماته التى سيجىء الحديث عن بعضها إن شاء الله.

قال الشيخ فى نفس القصيدة السابقة:

رأيت المصطفى كالبدرِ يأتى يزور حُسَيْنَـهُ حِينًا فَحينا

فزُوروا مِثـله سِبْطًا سَميًا وكونوا مثلَ خيْرِ المُرْسَلينا

نعـم..

إن المحب يسعد بحبه، والمبغض يشقى بما يأكل قلبه، والمحب إذا نزل بساحة من يحب سها عن الدنيا وما فيها، ولم يعد له شغل إلا بمن أحب، وإمامنا الجعفرى فى هذه الساحة هائم أبدا.

من أوائل ما نظم من القصائد الطويلة قصيدته المسماه "بالبردة الحسنية الحسينية فى مدح آل خير البرية" التى نظمها على غرار بردة إمام المادحين سيدنا البوصيرى رضى الله عنه.

وهكذا افتتح شيخنا قصيدته بقوله:

يارب صل وسـلم دائـما أبـدا على النبى وأهــل البيت كلهـم
أمِن تَذكُّرِ أهل البيتِ والـحــرمِ بكيتَ دَمْعًا على الخدَّين كالدِّيَمِ
أم حنَّتِ الرُّوح للأحباب طالبةً أهلَ الكمالِ لكى تحظـى بقُرْبِهِمِ

۞۞۞

مع الشيعة:

زاره جماعة من الشيعة -فيما رواه لى الدكتور عطية مصطفى- وراحوا يثنون عليه لمدائحه فى أهل البيت، فلما فرغوا من كلامهم سألهم عن مشايخهم، فقالوا إن عندهم شيوخًا كبارًا، وجعلوا يعددون أمامه أسماءهم وصفاتهم وعلومهم ومناصبهم الدينية إلى غير ذلك.

فسألهم: أهم يحسنون تربية تلامذتهم؟

فقالوا: طبعًا، هم فى ذلك مبرزون.

فقال لهم الشيخ: أيُفلح مشايخكم فى تربية أصحابهم، ولا يُفلح رسول الله ﷺ فى

تربية أصحابه؟؟ فبهتوا وما استطاعوا ردا!!

والشيخ يشير بذلك إلى سوء اعتقادهم فى الصحابة رضوان الله عليهم، وسبهم ولعنهم لصاحبى رسول الله ووزيريه وحبيبيه أبى بكر وعمر وبنتيهما أمنا عائشة وأمنا حفصة وذى النورين عثمان الذى تستحى منه الملائكة رضوان الله عليهم أجمعين.

يارَبِّ فارْضَ عن الصِّدِّيقِ حِبِّ النبىِّ له العَلْيـــاءُ فى الهِممِ سيّـِدنا

فى الغارِ كان مع المُخْتار صاحِبِهِ له التقــدُّمُ فى الإســـلامِ والكرمِ

أثْنَى عليـــه إلَهُ العـــرْشِ خير الثَّنـــاءِ فيابُشْـــراهُ خالِقُنَا بالنِّعـــمِ

واجعل رِضاكَ على الفاروقِ سيِّدنا أبى الفُتوحاتِ ذى بَطْشٍ بِذِى صَنمِ

يفرُّ إبليـــسُ إن لاقـــاهُ فى واجَوْرُ والظلمُ من مَرآهُ فى عَـــدَمِ طُرُقِ

وحُبُّـــــه لرســـولِ اللهِ لدى النَّبىِّ على نفـــسٍ على رَحِمِ يُعلِنُـــــهُ

واجعل رِضاكَ على عُثمانَ سيِّـدنا وجـــــامِعٌ لكتـــاب اللهِ بالقَلَمِ

مُجَهِّزُ الجيـــشِ فى أيّامِ وقائمُ اللَّيـــلَ فى الأسْحارِ عُسْـــرتِهِ والظُّلمِ

صِهْرُ النَّبىِّ وذو النُّـــورَيْنِ كذا الصَّـــبورُ على البَلْواءِ

كُنْيَتَـهُ والغُمَـمِ

هذه الأبيات أيضا من "البردة الحسنية الحسينية فى مدح آل خير البرية".

***

ومن أجمل قصائد الشيخ فى مدح أهل البيت أيضا قصيدة "رضينا" التى ابتدأها بهذا البيت:

رضينا يا بنى الزهرا رضينـا بحبكم لنا دنيا ودينـا

لكن الشيخ غيَّر هذا المطلع فيما بعد، ربما بعد زيارة أولئك الشيعة له، ليرسم معالم محبة أهل البيت، ويضع لها قانونها الأزلى الذى لا يتغير ولا يتبدل حتى تكون هذه المحبة "نعمة" لأصحابها لا "نقمة" عليهم، وأصبح البيت هكذا:

رضينا يابنى الزهرا رضينـا بحب فيكم يُرضى نبينـا

وهو حل مُعجز، ومدد من الله لا يخفى، يشبه قول الإمام البوصيرى فى سيد الكائنات ﷺ:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

فوضع به قاعدة لا يتسرب إليها أدنى خطأ فى كيفية مدح النبى صلى الله عليه وآله وسلم وحدوده.

وأخبرنى أيضا أخى الدكتور عطية بأن فضيلة الشيخ عبد الغنى -نجل الإمام الجعفرى وشيخ الطريقة- كان فى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم، فقال له بعضهم - منكرًا قول الجعفرى "بحب فيكم يرضى نبينا":

- أهناك حب لأهل البيت لا يُرضى النبى ﷺ؟

فقال الشيخ:

- نعم.. النبى ﷺ لا يرضى عن حب أهل البيت إذا صاحبه الخوض فى أصحابه.

***

كثيرة ومتعددة أبواب الخير التى فتحها الإمام الجعفرى، فإذا ولجنا من أحدها هالنا ما وراءها مما حباه الله من علوم وآداب وأنوار وأسرار والله يرزق من يشاء بغير حساب.

إن الحديث قد طال عن الشيخ، وكلما استدعيت نهايته تفتحت آفاق وآفاق تجذبنى إليها جذبًا. ولسوف أحاول أن أقصر حديثى فى الصفحات القادمة إن شاء الله على بعض معالم الجانب الروحى "الربانى" فى حياة الشيخ، ثم بعض كراماته ثم أختم والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

۞۞۞

العالِم الربَّانى:

إن الدور العظيم الرائد الذى قام به شيخنا الإمام الجعفرى يتمثل فى إحيائه للربانية فى صورها النقية الصافية فى عصر المادة والشهوات.

هذا رجل من أتباع سيدنا محمد ﷺ قام بدوره فى الحياة على أكمل وجه، فاق فى ذلك كثيرين غيره، ومع ذلك لم يتنازل عن أى قدر من ثوابت ديننا الإسلامى الحنيف فى ذروة درجاته: درجة الإحسان، ولم يأخذ بحجج من احتجوا بتغير الزمان والظروف، لأن الربانيين ما نظروا أبدًا لغير الله خالق الظروف والزمان وخالق كل شىء.

إنك أيها القارئ الكريم إذ رأيت قصيدة من قصائده مثل "شراب العارفين" ظننت أن ناظمها واحد من سلف الأمة الصالح، الذين عاشوا فى عصور العفاف والطهر فى قرون الإسلام الأولى.

والإمام الجعفرى ما قالها – وقال أشباهها – وهو معتزل للناس فى مغارة على قمة جبل، وإنما قالها وهو فى خضم الحياة رائحا غاديًا بين الناس فى قلب القاهرة التى تعج بالزحام وكل متناقضات الحياة فى العصر الحديث. إنما تحقق فيه درجة عالية من درجات العبودية، حيث يكون القلب مع الله والجسم بين الناس.

استمع إليه وهو يقول فى لغة سهلة لا تصعب على أحد:

شرابُ الرَّاحِ فى الذِّكرِ شرابٌ فائِحُ العِطْرِ

دَخَلْنَا حَضْرَةَ القُدسِ وكانتْ لَيْلَةَ القَدْرِ

شربنَا شَرْبَةَ الحُبِّ فَهِمْنَا طِيلَةَ العُمْرِ

شرابًا طيّب العَصرِ وكانتْ سَاعَةَ العَصْرِ

بِجِوفِ اللَّيْلِ إله العَرشِ نادَانَا لِلفجرِ

فَكَمْ من سَاهِرٍ يدعُو وَكَم من تَالِ للذِّكرِ

وَكَم من قائمٍ بِدَمعٍ سَالَ يبكِي كالقَطْرِ

فَسَلْ عنه بوقتِ اللَّيلِ إذ رُكَيْعَاتٍ يسرِى

وكم فى مسجدٍ كَمِثلِ الطَّيـــرِ فى
عَاكِفْ الوكرِ
وكـمْ مـــن بائِعٍ وحُبُّ القلبِ
شـــــارٍ كالجَمـرْ
وكمْ من عابدٍ مع الأقطابِ
يمشـــــى والخِضـرِ
وكـمْ من سائحٍ كسعْيِ الطَّيرِ
يسْعَـــــى والنِّسْـرِ
وكـم من عالِـم لآلى العِلْـمِ
يُهْـــــدى كالبَحـــــرْ
وكمْ من ذَاكرٍ كَمِثْل اللَّيْـــثِ فى
لَيْـــــلاً الزَّأْرِ
وكمْ من صَامِتٍ بِرُوحٍ منـــه فى
يَتْـــــلو السِّـــرِّ

۞۞۞

كرامات الأولياء:

العارف بالله لا يحب ذكر كراماته لأنه يستحيى من الله أن تُرفع له رأس بين الناس وهو يعلم، بل يرى فى كل لحظة أنه لولا فضل الله عليه لكان واحدًا من أرذل الناس.

فأولياء الله لهم العذر كل العذر فى إخفاء كراماتهم لأنهم أعرف بالله من غيرهم، لا يأمنون مكره طرفة عين، ويخافون من السلب بعد العطاء، فهو سبحانه الفعال لما يريد، لو شاء إهلاك أهل الأرض جميعًا لفعل ولا يبالى.

أما سائر الناس فإن إخفاء كرامات الأولياء فى حقهم لا يصح، لأن إخفاءها إخفاء لعلم أبرزه الله لينتفع به الناس ويزدادوا به إيمانا ويقينا.

روى الإمام القرطبى فى تفسيره عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال:

"جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبى أخذ مالى. فقال النبى ﷺ للرجل: "فأتنى بأبيك". فنزل جبريل عليه السلام على النبى ﷺ فقال: إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شىء قاله فى نفسه ما سمعته أذناه، فلما جاء الشيخ قال له النبى ﷺ: "مابال ابنك يشكوك! أتريد أن تأخذ ماله؟" فقال: سله يارسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسى. فقال له رسول الله ﷺ: "إيه، دعنا من هذا، أخبرنى عن شىء قلته فى نفسك ما سمعته أذناك".

فقال الشيخ: والله يارسول الله مازال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا".

(ثم ذكر الرجل أبياتا من الشعر قالها فى نفسه يعتب فيها على ولده ذكرها القرطبى بعد هذه القصة فى تفسير قوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾.

معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء تزيد المؤمنين -فى كل زمان ومكان- إيمانًا ويقينا.

لذلك كان الأولياء -الصحابة فمن بعدهم- يوصون إذا اطلع أحد على كرامة لهم أن يكتمها ولا يذكرها لأحد مدة حياتهم، أما بعد موتهم فليذكروها لمن شاءوا.

فكرامة الولى ليست منه، وإنما هى من الله تثبيتا له، وزيادة لإيمان من حوله من المؤمنين وتشجيعًا لهم على التعلق به واتباع طريقته والرغبة فى سلوك الطريق إلى الله.

***

وشيخنا الإمام الجعفرى -رضى الله عنه- كان زاهدا فى الكرامات، مؤثرًا للخفاء فيما يتعلق بمواهب الله وألطافه. ومع ذلك كان دائم الذكر لكرامات مشايخه وأولياء الله الصالحين، كما ذاعت عنه كرامات كثيرة ما كان إلى إخفائها من سبيل، منها على سبيل المثال أنه كان يلقى درسه المعتاد فى صحن الأزهر المكشوف وقد ازدحم حوله المستمعون، فإذا بالسماء تهل عليهم بالمطر، فقال الشيخ: ألا يوجد فيكم ولىّ لله يقول: اللهم حوالينا ولا علينا. فإذا بالمطر يمتنع عن موقع الدرس فقط دون سائر المواضع.

هذه كرامة للشيخ شاهدها المئات ممن كانوا فى الدرس، وتناقلوها واشتهر أمرها ولم تعد خافية.

وإن كان الشيخ قد حذر المريدين من الجرى وراء الكرامات والاغترار بها والوقوف عندها صيانة لقلب المريد حتى يكمل حاله، فقد كان أكثر تحذيرًا من مجالسة المنكرين لكرامات الأولياء المتعالين عليها، فقال فى "الإلهام النافع":

"ومن الوبال على المريد اختلاطه بالمنكرين الذين كلامهم كالحجارة، وإن قلب المريد كالزجاجة "والزجاجة كسرها لا يجبر" فمن عرض قلبه لهم فقد عرض زجاجته للكسر.

واعلم يا أيها المريد هدانا الله وإياك لنوره التام، وأدخلنا وإياك فى حضرة القدس التى لا يكدر صفوها بوجه من الوجوه: أن الآية فى اللغة هى العلامة التى تدل على الشىء المراد، وهى إما قولية كآيات القرآن الحكيم، وإما فعلية بلا واسطة ترى كالسماء والأرض، وإما

بواسطة كالمعجزات للرسل عليهم الصلاة والسلام، والكرامات للأولياء، لأن الآية من القرآن العظيم دليل على وجود الله تعالى، والسموات والأرض وما فيهن دليل كذلك.

والمعجزة من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دليل على صدقه، والكرامة من الولى دليل على صدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

إذا علمت كلامى هذا علمت معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾.

فجلوسك مع المنكرين وسماعك لقولهم حرام، إذ أنت مأمور بالإعراض عنهم، ففكر فى قولى هذا ولا تهمله فإنه نفيس إن شاء الله تعالى.

***

أعرض عن الجُهّـال لا تسمع فكلامُهُم شُؤم على من يَسْمَعُهْ لهُم

وإذا ذكرت لواحدٍ أهلَ الهُدَى وذَكَرْتَ سيرتَهُ فقَوْلُك يُفْجِعـُهْ

وإذا ذكرْتَ سواه مِنْ أهـلِ تَلْقاه يسمعُ للكلامِ وَيَجْمعُـــهْ الدُّنا

۞۞۞

من كرامات الشيخ:

أخبرنى أحد الأخوة ممن حضر الشيخ صالح وسعد بخدمته لسنوات طويلة أن الشيخ كان قد كلّفه بحمل قصيدة "البردة الحسنية الحسينية" إلى خطاط ليقوم بكتابتها

تمهيدًا لطبعها، وكان الخطاط يعمل فى نفس المصلحة التى يعمل بها أخونا (مصلحة المساحة) بل كان رئيسًا عليه.

ظلت القصيدة مدة طويلة عند الخطاط دون أن يكتبها، وكلما سأل عنها الشيخ وذهب الأخ إليه وجده مشغولاً بأعمال أخرى غيرها، ثم يعده بالانتهاء منها بعد يوم أو يومين، ولا يفى. فلما طال الأمر مما أوقع أخانا فى حرج شديد بين شيخه وبين رئيسه فى العمل حدث أن تغيب الخطاط عن العمل، فلما سأل عنه فى بيته علم من زوجته أنه استيقظ فى الصباح ليجد نفسه عاجزًا عن الإبصار وكانت أسرته فى كرب شديد لذلك.

فلما سأل الشيخ عن مصير القصيدة أخبره أخونا بما حدث للخطاط، فقال له: اذهب إليه وقل له يذهب إلى سيدنا الحسين، ويقف تجاه وجهه ويقول بصوت يسمعه من بجواره: يا مولانا الحسين بينما أنا أكتب فى قصيدتك ذهب بصرى، ثم يرجع.

وفعلا ذهب الخطاط يقوده ولده إلى مقام سيد الشهداء – عليه السلام – وفعل ما أمره به الشيخ، ثم أخذ بيد ولده خارجا من المقام ثم من المسجد، وبينما هو يلبس حذاءه على باب المسجد رُدّ إليه بصره، وأصبح أقوى من ذى قبل فذهب من المسجد إلى سيدى صالح. ومن يومها تولى كتابة قصائد الشيخ وأوراده، وإنك إذا فرغت من قراءة البردة الحسنية الحسينية وجدت اسم الخطاط المعنى بهذه القصة مكتوبا بخط صغير: كتبها وصممها الفقير إلى الله تعالى المهندس / عبد المتعال محمد إبراهيم.

***

وأطلعنى أخى الدكتور عطية مصطفى على كراسة عنده جمع فيها أحد أصحاب الشيخ ممن كان يواظب على دروسه بالأزهر عددًا من الكرامات التى رآها بنفسه منها ما يلى:

- "فى عام ١٩٦٥ دخلت الجامع الأزهر فرأيت سيدى الشيخ

صالح الجعفرى، ومنذ ذلك اليوم لازمت الشيخ فى درس الجمعة وفى الحضرات، وكنت أذهب إلى الأزهر كثيرًا لصلاة الظهر لأستمع إليه، وفى يوم كنا جالسين معه بعد صلاة الظهر فقال: ذهبت إلى الشيخ الباجورى فى قبره لزيارته وقراءة الفاتحة، فقال لى الشيخ الباجورى (من قبره): الناس فى كرب وضيق لأنهم لا يقرءون القرآن.

ومنذ ذلك الوقت وأنا أذهب لأتعلم قراءة القرآن حتى تعلمت تجويد القرآن، ومنذ ذلك اليوم وأنا ملازم لقراءة القرآن ببركة الشيخ صالح".

• "كنا جالسين حول الشيخ فى صحن الأزهر وهو يتحدث إلينا، ثم قام ليدخل إلى خلوته، فذهب كل واحد منا ليقبل يده، وذهب شاب ليقبل يده فإذا بالشيخ يبعد يده ويقول له: أنت وأمك لماذا تتآمرون على والدك؟ فدهش الشاب وقال: كيف عرف الشيخ هذا وأنا أول مرة أراه، وأول مرة أدخل الأزهر؟"

• "فى عام ١٩٦٩ تقريبا قرأت فى إحدى الصحف القومية مقالاً للشيخ على الخفيف مدير المساجد يشكك فى وجود سيدنا الحسين والسيدة زينب وأهل البيت فى مصر. وبعد ذلك ذهبت إلى الجامع الأزهر لصلاة الظهر، وبعد الصلاة كنت جالسًا على يمين الشيخ ولم أقل له شيئًا، فتلفت إلىّ وقال لى عن طريق الكشف: لا تسمع كلام الشيخ على الخفيف فأهل البيت موجودون بمصر".

• "كنا جالسين حول الشيخ صالح فى صحن الأزهر يتحدث إلينا ثم قال: معظم الناس أولادهم البنات يلبسون ملابس عريانة وهذا لا

يصح. فقال واحد منا: الحمد لله ليس لى بنات. فسكت الشيخ قليلا ثم قال للرجل: الملائكة تقول إن أولادك لا يصلون.

فقلنا: سبحان الله، والشيخ يكلم الملائكة وتكلمه ونحن لا نحس بهم".

***

هذه بعض كرامات الشيخ التى جمعتها فى هذه العجالة، ولقد مر بنا كرامات أخرى له والذى يطالع كتبه وقصائده يجد فيها الكثير الكثير من الكرامات التى ذكرها بنفسه أسأل الله أن يقيض لها من يجمعها ويضمها إلى سيرته.

ومن ذلك ما رأيته بمحض الصدفة فى كتابه "فتح وفيض وفضل من الله فى شرح كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله".

قال الشيخ:

- "ومن فضل الله تعالى كنت مرة جالسًا فى الروضة الشريفة بين المغرب والعشاء مغمضًا عينى مصلِّيًا على النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فسمعت صوته صلى الله عليه وآله وسلم من الروضة الشريفة (يقول:) عظ الناس من غير تفريط ولا إفراط".
- "وفى سنة من السنين أيضا كنت جالسًا فى الروضة الشريفة كالجلسة المتقدمة ومعى جماعة وهم يريدون السفر إلى مصر، وأنا أريد البقاء بالمدينة، وكنت أفكر فى ذلك، فسمعته صلى الله عليه وآله وسلم من الروضة الشريفة يقول: إما أن تبقى معنا وإما أن تسافر".
- "وفى سنة من السنين وأظنها فى أول حجة عام ١٣٧٢ هجرية

لقينى رجل من الكرد عليه حال، جاءنى ووضع يده على رأسى وصار يقول: مبارك، مبارك، فقلت له: أين سيدنا الخضر عليه السلام؟ فقال لى: ستلقاه بالروضة الشريفة، فلما وصلت المدينة جلست فى يوم من الأيام بعد صلاة العصر بالروضة، فجاءنى رجل ما رأيت مثله، وعليه عمامة صفراء، ولا يوجد له شبه فى الناس، له لحية بيضاء عظيمة، فسلم علىَّ وقال لى: هل هذا النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا سلمنا عليه يسمع سلامنا ويرد علينا ويرانا؟ فقلت له: نعم. فقال لى بلسان عربى فصيح: أرحت قلبى أراح الله قلبك. ثم قال لى: إذا كنا فى بلادنا وسلمنا عليه وصلينا عليه هل يبلغه ذلك؟ فقلت له: نعم. فقال لى: أرحت قلبى أراح الله قلبك. وسألنى عن أشياء أخر لا أذكرها الآن".

• "ثم جاءنى أناس يسلمون علىَّ فلما انصرفوا التفت فلم أجده فوقع فى خاطرى الكلام الذى أخبرنى به الكردى فى منى. ثم رأيته بالليل فى المنام كأننى فى السفينة التى كان قد ركبها مع سيدنا موسى عليه السلام فى البحر، ورأيته واقفا بالبر بالهيئة والثياب التى رأيته عليها وهو يسلم علىَّ من بعيد ويشير إلىَّ بيده، يعنى: أنا الذى رأيتنى بالأمس. على نبينا وعليه الصلاة والسلام".

***

أما تاج الكرامات، وغاية أهل المقامات فقد أكرم الله بها وليه الصالح إمامنا الشيخ صالح، وهى رؤية النبى ﷺ فى اليقظة والتلقى عنه، وقد بيّن الشيخ ذلك فى مواضع من شعره منها قوله الذى مررنا به قبل قليل:

أتانى رسول الله بالـورد منحـة وفى النوم أحيانا وفى حال يقظـة

۞۞۞

وفاتــه:

انتقل شيخنا إلى جوار ربه مساء يوم الاثنين الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ الموافق السادس عشر من أبريل سنة ١٩٧٩م، ودُفن بجوار مسجده الذى أنشأه قبيل وفاته بالدراسة بحديقة الخالدين بالقاهرة، يزوره فيه أحبابه وعارفو فضله وملتمسو أنواره وفيوضاته، وقد خلف الشيخ تراثا عظيما، وتلامذه ينشرون طريقته فى الآفاق، وصرحًا منيرًا يشرف على القاهرة من عل، ناشرًا المحبة التى هى جوهر الدين الإسلامى: حب الله ورسوله وأهل بيته وصحابته والعلماء العاملين وأولياء الله الصالحين..

يارب ارض عن الإمام الجعفرى وانشر طريقته مدى الآفاق(*)

۞۞۞

(*)من قصيدة طويلة للشيخ عبد الغنى صالح الجعفرى بعنوان "رقائق الحقائق".

مراجع

- الكنز الثرى فى مناقب الجعفرى جمعه الشيخ عبد الغنى صالح الجعفرى.
- المنتقى النفيس فى مناقب قطب دائرة التقديس سيدى أحمد بن إدريس للشيخ صالح الجعفرى.
- الإلهام النافع لكل قاصد للشيخ صالح الجعفرى.
- فتح وفيض وفضل من الله فى شرح كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله للشيخ صالح الجعفرى.
- ديوان الجعفرى.
- البردة الحسنية الحسينية فى مدح آل خير البرية للشيخ صالح الجعفرى.
- الشيخ صالح الجعفرى حياته وجهوده فى الحياة الروحية فى ميزان الإسلام، د. محمد عبد الدايم على سليمان الجندى، دار جوامع الكلم بالقاهرة.
- المطرب فى أولياء المغرب، عبد الله التليدى، دار الامان، الرباط.
- الرسالة القشيرية.